

بِحَمْدِ رَبِّنَا

# المختار

من البحوث والمقالات

الجنة للأولاد

# فهرس

## الجزء الأول من "المختار"

### • مقدمة

- (١) الإمام زيد
- (٢) قرآنيون ومحمديون
- (٣) تجديد الخطاب الديني
- (٤) كيف تعامل الإسلام مع الضعف البشري
- (٥) عندما ثار الأسطول البريطاني
- (٦) ما الذي حدث ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م
- (٧) محاربات في سبيل الله
- (٨) ضرورة إعادة النظر في إجراءات الاتهام والحبس والتشهير
- (٩) ثلاث مكافحات في سبيل الثقافة والمعرفة
- (١٠) خمسة أفكار يتقدم بها الإسلام إلى الغرب
- (١١) يا علماء المسلمين القضية ليست قضية اتحادات
- (١٢) الثوابت .. ما هي أولاً؟؟
- (١٣) جاء يحمل أسلحته وكتبه منذ ١١٠ سنة
- (١٤) لماذا تعثرت مشروعات النهضة في مصر

## مُتَلَمَّتْ

اقترح بعض الأصدقاء أن أبادر بجمع المختار من المقالات والبحوث، لأن ما ينشر في الصحف يصعب الاحتفاظ به، فضلاً عن أن هناك "بحوثاً" لم تنشر، أو نشرت من هيئات متخصصة، ولا تصل للقارئ العادي. وقد وجدت أن الاقتراح يحقق للقراء الذين أعجبوا بالمقالات فرصة حفظها، كما سيتيح لي فرصة نشر بحوث عديدة قمت بها في الستينات عندما كان لدي فُسحة من الوقت، ولم تسنح الفرص بنشرها. ويسرني اليوم أن أقدم الجزء الأول، وهو يضم عدداً من البحوث، وعدداً من المقالات الأولى لي في مجلة القاهرة وغيرها. وأعتقد أن هذه المجموعة ستظفر برضاء القراء.

القاهرة في يناير ٢٠٠٧ م

## الإمام زيد

كان الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - عالماً محققاً، وفقياً ثبناً أحكم علوم الشريعة إحصاءاً جعله المرجع فيها، وكانت له شخصية قوية، وترفع عن سفساف الأمور ومطامع الدنيا واعتزاز بالعلم، وبما ينبغي أن يكون للعالم من كرامة، وقد نفع الله به الألوفاً من الطلبة الذين تلقوا علوم الشريعة عليه في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، كما نفع الله به عامة المسلمين عن طريق كتاباته ومؤلفاته العديدة والتي تتسم بسهولة أسلوبها والتمكن من المادة مع توخي الموضوعية والعدالة في المعالجة وعند إصدار الأحكام، كما كانت له وفتات أمام الحكام.

وكتابه "الإمام زيد" هو أحد الكتب التي أصدرها عن بعض أئمة الفقه مثل مالك وأحمد بن حنبل، وهو يكشف عن مذهبه في التاريخ، وفهمه لما تكون عليه كتابة السير - فليس هو بالمؤرخ الذي ينتهي علمه بما يمكن أن يقال عن الشخص المترجم له من أخبار أو صفات أو أعمال - فإن هذا لا يمثل سوى أقل من نصف كتاب الإمام زيد (١٨١ صفحة من ٥٣٩ صفحة)، أما ما اشتمل عليه الباقي فهو فقه الإمام زيد، والمذهب الزيدي بصفة عامة، وهو أمر لا يمكن أن يتقصاه ويفصل فيه إلا الفقيه المحنك الذي ألم بأقطار الفقه وأحكام أصوله وفروعه ثم لا يميل مع هوى ولا يخشى في الحق لومة لائم، وبحكم هذا المنهج، فإن كتاب الإمام زيد يعطي القارئ صورة دقيقة ومفصلة لحياة الإمام زيد من نشأته حتى استشهاده، ثم يأخذ به في مجالي الفقه الزيدي ويغوص في أعماقه حتى يدرك تماماً أصول المذهب ووجوه الإلتلاف والاختلاف بينه وبين المذاهب الأخرى ونقط القوة والضعف وتصل دقة المعالجة وشمولها أن يلم القارئ بأصول المذاهب الفقهية الأخرى بحكم مقارنة المذهب الزيدي بها ولا يستطيع هذا إلا أستاذ متمكن وعالم محقق.

والإمام زيد - رضي الله عنه وأرضاه - وهو فرع تلك الروحة النبوية العاطرة الطاهرة، وهو الشهيد السعيد الذي اتبع سنة جده - سيد الشهداء - الإمام الحسين، ووالد جده فارس الإسلام وصفي الرسول الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في الخروج على الظلمة، والحيلولة دون أن يتحكم البغاة في شئون الحياة ومصائر الناس لا يثنيهم عن ذلك قلة العدد أو احتمال الهزيمة لأنهم لا يطلبون على وجه التعيين "النصر"، وإنما هم يقومون بواجب لا مناص، ولا مفر منه، وسيكفل لهم على أي حال إحدى الحسينيين "الشهادة أو الانتصار".

والإمام زيد هو ابن علي زين العابدين الذي أنجاه الله من أعدائه ليكون لهم حزناً، وليتفرغ منه العترة الطيبة، وهو الذي اتصف بالخلانق والشمائل التي دفعت الشاعر لأن يقول لا متكسباً، أو مادحاً في قصيدته الطويلة:

هذا ابن خير عباد الله كلهم      هذا التقيّ التقي الطاهر العلم  
إذا رأته قريش قال قائلها      إلى مكارم هذا ينتهي الكرم  
يُغضي حياءً ويُغضي من مهابته      فلا يكلم إلا حين يبتسم  
سهل الخلائق لا تخشى بواده      يزينه اثنتان الحلم والكرم

وقد روي الإمام زيد عن علي زين العابدين وسعيد بن المسيب ونافع مولى عبد الله بن عمر وعكرمة مولى ابن عباس، وروي هو عن أبيه وجده وابن عباس وجابر وبعض أمهات المؤمنين وغيرهم.

وفي شخصية الإمام زيد ثلاثة جوانب جلاها الكتاب:

**الجانب الأول:** الفقيه الذي ألم بالفقه وزامل واصل بن عطاء وأخذ عنه أبو حنيفة بالإضافة إلى الفقه الشيعي وما يقوم عليه من أحاديث أهل البيت التي حرّمها أو اقتضبها الفقه السنّي التقليدي.

**والجانب الثاني:** رجل الدولة الذي يؤمن بالثورة على الظلم وإعادة الملك العضوض إلى ما كان عليه من خلافة رشيدة، تقوم على أسس استلهمها من فقهه الخاص وتميز بها على بقية المذاهب.

**والجانب الثالث:** الإنسان الذي لمس الظلم واكتوى به، وشاهد انتهاك الحقوق والحريات واغتصاب السلطات، فأخذت الثورة على الطغاة فيه طابعاً وهدفاً معيناً هو تحقيق العدالة وإشاعة الكرامة والأمن والطمأنينة بين الناس.

وبحكم هذه الجوانب لم يلزم الإمام زيد المدينة المنورة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، كما كان يفعل أهل البيت، ولم يسلك ما سلكه أبوه الذي كان يرى المصلحة في التقيّة حتى يقوى الأمر، ولم يقتصر على الفقه الشيعي، فذهب إلى العراق وتعرف على شعبه وعلمائه، وأبرزهم وقتنذ "واصل بن عطاء" رأس المعتزلة.

وخلال تعرفه على أهل العراق ولمسه لمظالم الأمويين اعتمز الثورة على الحكم الأموي، وكان الخليفة وقتنذ هو "هشام بن عبد الملك" ووالي الكوفة، حيث ثار زيد يوسف بن عمر، ولم يثنه عن ذلك ما حاوله الناصحون، وما استشفوه من نكت وغدر، وكان حسبه أن يبايعه الناس البيعة التي وضع صيغتها: "إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ورد المظالم ونصر أهل الحق.. أتبايعون على ذلك"؟ فإذا قالوا نعم وضع يديه على أيديهم وقال: "عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لتفنين ببيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحن لي في السر والعلانية"، فإذا قال البايع نعم، مسح يده على يده، وقال "اللهم اشهد"، ووضح من هذه الصيغة بروز فكرة العدالة والإنصاف.

قال ابن الأثير أن خمسية عشر ألف بايعوه، ولكن الذين نهضوا - عملياً - للقتال معه لم يجاوزا مائتين وثمانية عشر رجلاً، وقيل نحو أربعمائة، وتصدى زيد بهذا العدد القليل لجيش جرار جرده هشام بن عبد الملك، وانتصرت الفئة القليلة حتى أصيب زيد بسهم في جبهته وسقط شهيداً، فتفرق الجمع وهزم أنصاره، وعمد يوسف بن عمر قائد جيش هشام إلى جثة زيد فنصبها على خشبه في كناسة الكوفة:

### علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

لم يضع دم زيد هدرًا، ولم ينل من منزلته الرفيعة أن يصلب "في كناسة الكوفة"، فقد كان هذا كله سبباً في استحثاث الأحداث التي أودت بالخلافة الأموية، ثم تناولتهم بعد عشرة أعوام من حي أو ميت بالعباد والهوان.

وعندما استشهد زيد كان له من العمر ٤٢ عاماً فقد ولد في سنة ٨٠ واستشهد سنة ١٢٢، وهذا دليل على عبقريته وتوفيقه، فلم يكن بغيرهما ليستطيع أن يرسى أسس مذهبه، ودعائم دولته.

وكان لاستشهاده رنة أسي ولوعة حزن، قال عنه عبد اله بن الحسن بن الحسن شيخ أبي حنيفة ووالد محمد "النفس الذكية"، "لم أر فينا وفي غيرنا مثله"، وجاء في مقاتل الطالبين "إن المرجنة وأهل النسك لا يعدلون بزید أحدًا" وشبه أبو حنيفة خروجه بخروج الرسول يوم بدر وما منعه أن يخرج معه إلا مواع قاهرة، ولكنه أعانه بالمال، فأرسل إليه عشرة آلاف درهم "ومن جهز غازياً فقد غزا"، وقال عنه أبو حنيفة: "شاهدت زيد بن علي، فما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أعلم، ولا أسرع جواباً، ولا أبين قولاً، لقد كان

منقطع النظير"، وكانوا يقولون إن ثورته هي ثورة العلم والزهادة، وإن الذين قاتلوا معه كانوا من القراء والفقهاء، وكان سفيان الثوري إذا ذكر زيد بكى على ما فقدته العلم بفقدته، وقال بعض معاصريه: "كنت إذا رأيت زيد بن علي رأيت أسارير النور في وجهه"، فرحمه الله رحمة واسعة، ورضي عنه وأرضاه.

\* \* \*

### من أصول الفقه الزيدي:

أسهب الشيخ أبو زهرة - رحمه الله - الحديث في الفقه الزيدي على ما أشرنا إليه، ولاحظ أن أصول الفقه الزيدي "تقرر المناهج مجردة من غير محاولة أن تكون خادمة لفروع معينة، فليس طريق استنباطها الرجوع إلى فروع، بل هي مستنبطة استنباطاً منطقيًا، فهي موازين لا تتجه إلى الموزون، ولكن يتجه المستنبطون إلى ضبط الميزان في ذاته.

وجاء في الفصول اللؤلؤية للأصول الزيدية، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية "وكيفية الاجتهاد في الحادثة أن يقدم المجتهد عند استلاله قضية العقل المبتوتة، ثم الإجماع المعلوم، ثم نصوص الكتاب والسنة المعلومة، ثم ظواهرهما كعمومهما، ثم مفهومات الكتاب والسنة المعلومة على مراتبها، ثم مفهومات أخبار الأحاد، ثم الأفعال والتقديرية كذلك، ثم القياس على مراتبه، ثم ضروب الاجتهاد الأخرى، ثم البراءة الأصلية ونحوها".

ويشرح الشيخ أبو زهرة، ويبدد ما قد يعلق بالذهن من شكوك لعدم وضوح هذا الإجمال فيقول: " وإن هذا الكلام يستفاد منه أن قضايا العقل القطعية هي في المرتبة الأولى، كما أن الإجماع المتواتر المجموع به مقدم على نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة والمعلومة، وقد يبدو الأمران غريبان، ولا بد أن نزيل الغرابة فيهما.

فالعقل الذي يقدم على النصوص هو القضايا العقلية المقطوع بها من حيث معرفة الله تعالى وإثبات نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله تعالى وأن محمداً جاء بهذا الدين، وأن ما يقوله عليه السلام هو من تبليغ رسالة ربه، فإن ذلك مقدم من حيث الترتيب المنطقي على الاحتجاج بالقرآن والسنة لأنه يقوم عليه إثبات صحة الاحتجاج بهما.

فالعقل يرجع إليه في الشرع إذا لم يكن ثمة أي طريق شرعي يرجع إليها وليس هذا داخلاً في قضية العقل المقدمة على النصوص والفرق بين حكم العقل في الموضوعين من ثلاث نواح:

أولها: إن قضية العقل المقدمة على النصوص هي قضية العقل المبتوتة، أي المقطوع بها التي لا تقبل نقضاً، وحكم العقل بحل أو تحريم إنما هو أمر ظني وليس بأمر قطعي.

الثانية: إن قضية العقل المقدمة هي ما يقوم عليه أساس الخطاب الإسلامي، وهو الإيمان بالله ورسوله النبي الأمي ﷺ الذي جاء بهذا الكتاب، والإيمان بالمعجزة، أما حكم العقل في التكليف، فهو متأخر عن الخطاب بشرع الإسلام، إذ هو بناء على ما جاء به الشرع فحكم العقل عندئذ غير خارج على ما جاءت النصوص بحيث لا يكون غريباً عنها، فمثلاً إذا رأى بعقله إن في أمر فساداً، ولم يجئ نص بالتحريم أو بالتحليل كان العقل حاكماً بالتحريم، لأن الله تعالى لا يجيز الفساد، ولا يرضاه لعباده، وإذا رأى العقل في أمر مصلحة، ولا نص عليها، فإنه يحكم بأن الله تعالى يطالب بها، لأن الله تعالى رحيم بعباده، وكل مصلحة فيها رحمة، مادامت خالية من الفساد، ولا يترتب عليها فساد ولا موضع فيها لهما.

**الثالثة:** إن موضوع قضية العقل المقدمة هي ما يقوم عليه شرع الشرائع عامة، أما حكم المتأخر فهو حكم العقل في الوقائع الجزئية.

كما يفند المؤلف ما قد يظنه البعض من شكوك حول تقديم الإجماع على ما يقضي به القرآن الكريم والسنة النبوية فيقول: "لقد ذكر صاحب الفصول اللؤلؤية أن الإجماع الذي ثبت في حقائق الإسلام الأولى التي تثبت بالتواتر عن النبي ﷺ تواتر عليها إجماع المؤمنين في عهد الصحابة لأنهم تلقوا ذلك عن النبي ﷺ وإجماع التابعين من بعدهم، لم يشذ أحد في العصر الأول الصحابي، ولا أحد في العصر التابعي، كإجماعهم على أن الصلوات خمساً وإجماعهم على أن صلاة الفجر ركعتان، والظهر أربع، والعصر والعشاء كذلك، والمغرب ثلاث، وإجماعهم على أن الصلاة المفروضة على هذه الهيئة التي وردت عن النبي ﷺ، وإجماعهم على الصوم وأشكاله، وإجماعهم على الزكوات وعلى مناسك الحج، وغير ذلك من الأمور التي تلقاها الصحابة بالإجماع عن النبي ﷺ، فإن هذه موضع تسليم لا موضع اجتهاد، وهي الحقائق التي لا يصح لمجتهد أن يخالفها معتمداً على ظاهر نص أو متعلقاً بظاهر أثر.

وليس تقديم الأخذ بهذه المسلمات على الاجتهاد في القرآن والسنة تقديماً للإجماع في حد ذاته على القرآن والسنة، بل هو تقديم لأمر ثابت عن النبي ﷺ بطريق ليس لأحد أن يشك في نسبتها، فهو أخذ بأقوى سنة وأخذ بأحكم ما يدل عليه القرآن من أحكام".

ولا يتسع المجال لإيراد ما ذكره الشيخ أيضاً لبقية ما يأخذ به المجتهد، لأنه عالج ذلك معالجة تفصيل مكانه كتب الفقه.

### بعض مزايا المذهب الزيدي:

رأينا الخاص أن في المذهب الزيدي من المزايا ما يحسن الأخذ به، وهو أيضاً رأي المؤلف، وتلك قضية تأخذ أهمية خاصة في الوقت الذي ترتفع فيه الصيحة بفتح باب الاجتهاد.

ومن هذه المزايا:

### أولاً: في الناحية السياسية:

(أ) حل الإمام زيد جانباً من المشكلة السياسية الجدلية التي ثارت - ولو من وجهة نظر الشيعة - حول خلافة أبي بكر وعمر وتخلف خلافة علي عنهما مع أنه في رأي الشيعة عموماً، وبعض السلف أيضاً، أفضل - حلاً "ديبلوماسياً" وأصولياً سليماً، يبرز سعة أفقه السياسي، فهو يرى أن الأمر في الخلافة ليس هو "الأفضل" ولكنه الأصلح وأن خلافة أبي بكر وعمر "فوضت إليهما لمصلحة رآها المسلمون وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطيب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً وسيف أمير المؤمنين عليه السلام عن دماء المشركين من قريش لم يجف بعد والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الإنقياد وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوا باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ. ألا ترى أنه لما أراد أبو بكر في مرضه الذي مات فيه تقليد الأمر إلى عمر بن الخطاب صاح الناس وقالوا "لقد وليت علياً فظاً غليظاً، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر لشدة وصلابة وغلظة في الدين حتى سكنهم أبو بكر".

فزيد يقرر هنا أن الخلافة إنما تقوم على "الأصلح" الذي تتطلبه دواعي المصلحة وليس الأفضل، فله درة من فقيه أريب استطاع أن يجمع بين الفقه والسياسة جمعًا موفقًا لا أمت فيه ولا التواء، ولا تعسف فيه ولا تطويع ويمكن أن يرضى الشيعة والسنة على سواء.

وينبني على هذا الرأي أن لا تكون الخلافة بالوراثة، وإنما تتم بشورى المسلمين وأن لا يكون هناك عصمة للأئمة، لأن عصمة الأئمة عند الإمامية إنما جاءت مما تؤمن به من أن الخلافة تكون بالوراثة في فرع أبناء فاطمة عن الحسين، كما استبعد الإمام زيد فكرة المهودية والإمام المكتوم واقتراب ذلك من أفضل مذاهب السنة، بقدر ما ابتعد عما أزعج في مذاهب الشيعة.

ولما كان من أصول المذهب الزيدي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد رفض السكوت على الظلم والاستسلام للأئمة الظلمة وأوجب الثورة عليهم، وقام زيد رحمه الله وابنه من بعده، ومن شايعه بذلك في فترات متفاوتة، وهذا المبدأ في السياسة يستبعد التقية التي أخذت بها الإمامية، ويمكن أن يُساء فهمها، كما أنه يتميز عما ذهب إليه بعض أئمة السنة من إثارة الاستسلام على الفتنة، ما لم يرتكب الإمام "كفرًا بواحدًا"، وفاتهم إن الظلم هو أكبر صور الكفر البواح، وبهذا خلص المذهب الزيدي من مأزق وقع فيه الإمامية وبعض أئمة السنة.

وقد نقلنا عند الإشارة إلى حياته وثورته نص البيعة التي وضعها لمبايعة أنصاره، وبروز فكرة العدالة، وقد استمرت هذه الفكرة بارزة في صيغ أخرى وضعها أئمة الزيدية كالبيعة التي تمت للإمام الهادي عندما ولي اليمن وهو الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي الزيدي سنة ٢٨٤ هـ ونصها:

"أيها الناس إنني أشترط لكم أربعًا على نفسي الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، الأثرة لكم على نفسي فيما جعله بيني وبينكم، أو تركم فلا أتفضل عليكم، وأقدمكم عند العطاء قبلي وأتقدم عليكم عند لقاء عدوي وعدوكم والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم وإن ملت وعدلت عن كتاب الله وسنة نبيه فلا حجة لي عليكم، فهذه هي سبيلي أدعو الله على بصيرة أنا ومن اتبعني".

### ثانيًا: في الناحية الأصولية:

(أ) ذهب الإمام زيد في قضية مرتكب الكبيرة التي اشتجرت فيها الأقلام وتباينت فيها الأفهام منذ أن أثارها الخوارج، مذهبًا وسطًا لعله أمثل المذاهب.

فالخوارج - خاصة الأزارقة - كفروا من قال بالتحكيم وقضوا أن دار المخالفين دار حرب، وأن مرتكب الذنب، ولو خطأ، كافر، وأولاده كفار بياح قتلهم، أما الإباضية منهم فقد قالوا أنه (أي مرتكب الكبيرة) كافر كفر نعمة لا كفر إيمان، وأنه لا بياح إلا معسكر السلطان وذهب الحسن البصري إلى أن مرتكب الكبيرة المصرين عليها منافقون، بينما انقسم المرجئة قسمين، قسم خلع الربقة وقيود الأحكام وقالوا لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، وقسم آخر قرر أن العاصي يستحق العقاب إلا أن يتغمده الله برحمته، وأمره راجع إلى ربه، وقد يطلق على هؤلاء مرجئة السنة.

وقال واصل بن عطاء: أن مرتكب الكبيرة منزلة بين المنزلتين، وأنه فاسق مخلد في النار.

جاء زيد فقال: إن مرتكب الكبيرة بمنزلة بين المنزلتين ويسمى فاسقًا، ويسمى مسلمًا، ولكنه لا يخلد في النار وإنما يعذب على قدر ذنبه.

ويتبع هذه قضية أخرى تلحق بها هي زيادة الإيمان ونقصه، فهل الإيمان يزيد وينقص؟ اختلف العلماء في ذلك "فبعض العلماء قال إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه التصديق والإذعان فلا يزيده العمل ولا ينقصه، فالأعمال ليست جزءًا من الإيمان، وبعض العلماء قال أنه يزيد ولا ينقص مادام قد حصل الإذعان والتصديق.

ولو أننا أردنا أن نأخذ من قول الإمام زيد في مرتكب الكبيرة رأيه في زيادة الإيمان ونقصه، لكان الرأي الوحيد هو أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص على معنى أن المعاصي لا تنقصه والطاعات لا تزيده، وعلى معنى أن الإيمان الصحيح يقتضي العمل حتمًا، فالعمل والإيمان متلازمان، فليس نظره كنظر أبي حنيفة الذي يقول أن الإيمان لا تنقصه المعصية ولا تزيده الطاعة لأنه حقيقة ثابتة في القلب، بل له نظر آخر، وهو أن الإيمان والعمل متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فمن لا يعمل عاص ومرتكب كبيرة.

(ب) وابتعد الإمام زيد في قضية القضاء والقدر عن الجهمية (أو الجبرية) الذين ينفون عن الإنسان أي إرادة وأنه "كالريشة في مهب الريح تحركها ولا تحرك نفسها ونسبة الأفعال إليه ليست على الحقيقة، بل هي كقول "مات زيد ونبت الزرع وجري الماء" أو القدرية الذي نفوا القدر بمعنى تقدير الله الأزلي في علمه المكنون بما يكون من العباد من خير أو شر، وقالوا إن الأمر أنف، أي أن علم الله تعالى بالأمر هو في وقت وقوعه"، نقول ابتعد الإمام زيد عن هذين الرأيين المنحرفين"، وانتهى الشيخ أبو زهرة إلى أن مذهب الإمام زيد في هذه القضية يقوم على ثلاثة أمور:

أولها: إن الإيمان بالقضاء والقدر لا يمنع حرية العبد ولا عموم سلطان الله تعالى وشمول قدرته. ثانيهما: أن الله تعالى قد أودع الإنسان قدرة على الأفعال باختيارهم، فهم يفعلون بقوة مودعة أودعهم الله إياها وأنه القادر على ما أقدروا عليه وأنه المليك لما ملكهم بإرادة الإنسان من خلق الله. ثالثها: إن مشيئة العبد ليست مخالفة لمشيئة الله، فالله سبحانه وتعالى لا يعصي قهرًا عنه.

(ج) وهناك قضية أصولية أخرى هي التحسين والتقبيح العقلانيان وقد ذهب كثير من علماء السنة إلى أنه لا تكليف إلا بالشرع، وأن العقل لا يدرك حسنًا ولا قبيحًا إلا ببيان الشارع له، فلا حسن في الأشياء يعد ذاتيًا يدركه العقل من تلقاء نفسه فيجب عليه أن يفعله، ولا قبح في الأشياء يعد ذاتيًا فيجب بحكم العقل أن لا يفعله، وأن الأمور كلها إضافية وإرادة الله في الشرع، وفي كل شيء مطلقة لا يقيدتها شيء، فهو خالق الأشياء، وخالق الحسن والقبيح وأوامره هي التي تحسن وتقبح ولا تكليف بالعقل، بينما ذهب المعتزلة إلى نقيض ذلك ورأوا أن الأشياء لها حسن ذاتي وقبح ذاتي، وأن العقول المجردة تدرك الحسن والقبح للأشياء، وبها يكون الإدراك ويكون معه التكليف، كما يكون هناك أمور مترددة بين الحسن والقبح، فإذا أمر الله تعالى بها فهي حسنة، وإذا نهى الله سبحانه عنها فهي قبيحة.

ونقل عن أبي حنيفة وطائفة من علماء الكلام أن للأشياء حسنًا ذاتيًا وقبحًا ذاتيًا، وأن الله تعالى لا يأمر بما هو قبيح في ذاته، ولا ينهي عن أمر هو حسن في ذاته وه يقسمون الأشياء إلى أشياء حسنة لذاتها وقبيحة لذاتها ومترددة بين الحسن والقبح، الأمر في التكليف والثواب والعقاب إلى السمع، فالله تعالى هو الذي يكلف وهو الذي يجازي من يكلفه بالخير أو لعذاب، وكل مجزي بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ويقول الشيخ أبو زهرة: "إن ذلك هو الأقرب إلى رأي الإمام زيد، لأنه المنقول عن الزيدية، ولأنه رأي أبي حنيفة الذي تتلمذ للإمام زيد عندما جاء بالكوفة، ولأنه المعقول المعتدل في ذاته".

(د) وأخيرًا فلا بد من الإشارة إلى مذهب الزيدية في بقاء الاجتهاد وإعماله وإن كان هذا الاجتهاد محكومًا بالمذهب، ولكنه مع ذلك ينمي إلى المذهب ويكفل له الحياة والتفاعل، كما أنه يسمح بالأخذ من المذاهب الإسلامية الأخرى، فيما لم ينص عليه المذهب الزيدي، ولم يسوغ الزيدية للمفتي الزيدي أن يفتي إلا باجتهاد وإلا لم يكن فرق بينه وبين العامي، لأنه إن لم يجتهد كان حاكياً لأقوال غيره والحكاية قد تجوز للعامي، وليس للمفتي\*.

## قرآنيون.. ومحمديون أيضاً

تصور البعض أننا من كثرة دعوتنا إلى تنقية السنة من الأحاديث الموضوعة، ومن نقدنا لجعل السند هو المعيار الأول في تكييف حالة الحديث، وهل هو صحيح أو ضعيف.. الخ، أقول إن البعض تصور أن جمال البنا من منكري السنة، وأنه من الذين يطلقون عليهم (القرآنيين)، بل جاء في بعض كتاباتهم أنه (زعيم القرآنيين في مصر) وغاب عنهم أنه مؤلف كتاب (الأصلان العظيمان.. الكتاب والسنة)، وقد رأيت أن أوضح الموقف، فكتبت في مجلة (المجتمع المدني) التي يصدرها مركز بن خلدون، وكان يأوي عددًا من منكري السنة مقالاً بعنوان (قرآنيون.. ومحمديون أيضاً)، ونقل موقع إلكتروني المقال، وفوجئت برد جاء بعنوان (قرآنيون فقط مع كل الاحترام للأستاذ جمال البنا) بتوقيع مستعار (الزياني القرآني)، فرددت عليه بخطاب (إلى الشيخ الزباني) مستفهماً عن بعض ما جاء في مقال، ولكنه لم يرد، وفيما يلي هذه المساجلات.

أنه على كل حال سجال حضاري مهذب، لو بالنسبة لأهمية ما فيه من وقائع، رأينا أن ندرجه في هذه المجموعة الأولى من المختار.

## قرآنيون.. ومحمديون أيضاً

تعرضت السنة النبوية منذ أن ظهرت لعواصف عاتية وظهر من الأيام الأولى مجموعات رفضتها أو تحفظت عليها لعل أولها الخوارج الذين استبعدوا حد الرجم للزاني المحصن لأنه لم يرد في القرآن الكريم، وردوا رواية كل من شهد صفين، سواء من جيش علي أو من جيش معاوية.

وقال واصل بن عطاء شيخ المعتزلة الأول "الحق يعرف من وجوه أربعة - كتاب ناطق - وخبر مجمع عليه - وحجه عقل - وإجماع الأمة"، ويفهم من هذا موقفه من الاستدلال بالحديث وهو أن يكون خبراً مجمعاً عليه.

أي ما أطلق عليه فيما بعد "المتواتر"، أما الأحاديث التي لم تبلغ درجة التواتر كأخبار الآحاد فهي مطروحة في نظره. وقد تابعه أقطاب المعتزلة من بعده كما ارتأت بعض الفرق الأخرى هذا الرأي ولربما تأثرت بالمعتزلة في هذه المسألة، وبذلك صار العمل بالخبر الواحد قضية خلافية بين أشهر الفرق العقدية وهما المعتزلة وأهل السنة.

وقد دعم اتجاه واصل رأيه في عدالة الصحابة بعد الفتنة الكبرى، فقد توقف في أمر الذين اشتركوا في واقعة الجمل وأمسك عن الحكم عليهم على وجه التعيين وقال: "قد علمنا أنهم ليسوا بمحققين جميعاً، وجائز أن تكون إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلّة، ولم يتبين لنا من المحق منهم ومن المبطل، فوكلنا أمر القوم إلى عالمه وتوليننا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا "قد علمنا أن إحداهما عاصية لا ندري أيكما هي".

وأمر الشيعة أفدح، فإنهم يستبعدون رواية جمهرة الصحابة وفي مقدمتهم السيدة عائشة وأبو هريرة وكل الأمويين ولا يعتمدون إلا على أحاديث أهل البيت ويكاد معظمها يروي من مصدر واحد هو جعفر الصادق.

ولكن هذه العواصف لم تقتل السنة، أو حتى توهنها، فالخط التقليدي لم يتوقف ورزق في الإمام الشافعي من دافع عن حديث الآحاد كما ظهر أحمد بن حنبل الذي يعد أكبر راو للحديث وتدعمت السنة بفضل جهود هذين الإمامين رغم كل ما أهيل عليها من غبار أو أثير في وجهها من شبهات.

هذه مقدمة قد تكون لازمة لكي نفهم ظهور "القرآنيين" الذين يعتبرون القرآن المصدر الوحيد للإسلام، وأنه لا يجوز استنباط الأحكام من غيره حتى لو كان السنة.

وإذا أردنا أن نفصل في الدعوى ما بين "القرآنيين" و"السننيين" أي إتباع السنة بطريقة موضوعية، ومحادية، فإن النتيجة تكون مؤيدة لكل منهما.

فلا يمكن استبعاد السنة تماماً كما يتصور القرآنيين.

وفي الوقت نفسه فإن السنة لا يمكن أن تسامي القرآن الكريم أو أن تكون بمنزلته، فضلاً عن أن تكون "قاضية على الكتاب" كما ذهب إلى ذلك غلاة الرواة أو أن "الكتاب أحوج إلى السنة، من السنة إلى الكتاب" كما زعموا.

فالأمر المحقق أن القرآن الكريم قد أوكل إلى الرسول مهمة "تبيان" القرآن، والخلاف ما بين القرآنيين والسننيين في هذه النقطة هي أن الأوليين يرون أن الرسول قد قام بهذا التبيان عملياً، فصلى، وتصدق، وصام بطريقة معينة، وشاهد المسلمون جميعاً ذلك وتابعوه عليه، فهذه هي السنة العملية التي يتقبلها القرآنيون، ولا يمكن أن يتملصوا من الالتزام بها لأنها هي التي توضح كيف تؤدي الصلاة، وكيف تتفق الزكاة وكيف يصوم الناس.

أما السنة القولية التي يرفضها القرآنيون فهي ما يتمسك بها ويشد بما يشد عليها بالنواجز "أهل السنة والجماعة" أو "الجمهور" كما يقولون.

ونحن أول من يسلم مع القرآنيين أن السنة القولية قد دخلها الوضع، وأن السند ليس هو الوسيلة المثلى لإثبات نسبة الحديث إلى رسول الله، بل يمكن الدفع أن لا يثبت بها حكم بعد أن أكد القرآن الكريم على ضرورة الكتابة بالنسبة لإثبات الحقوق ووضح ذلك وأكد في الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

بل نحن معهم في أن هذا التشويه الذي لحق السنة القولية كان من أكبر أسباب تخلف المسلمين وأنه أقحم في القوانين ما يخالف القرآن، وأن السنة هي التي صاغت وصكت شخصية المسلم النمطي الذي يعكف على العبادة ويحرص على الشكليات.. الخ.

نحن نتفق معهم في كل هذا ولا يخالجننا شك في أن في "الصحيحين" مئات من الأحاديث نحن نتوقف عنها.

ولكن...

كل هذا لا يمنع من أن عدداً محدوداً من الأحاديث قد يكون بالمئات، قد خلص إلينا من خضم هذه المتاهة والقضية ليست قضية عدد، فرب حديث واحد يفضل ألف حديث، ولدينا بالفعل من هذه الأحاديث ما يحمل سمة النبوة وما يرسى أسساً ثمينة في القانون والاجتماع والأخلاق.

من يستطيع أن يقول مثل الرسول "لا ضرر ولا ضرار" أو "المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم" أو "أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسد فسد الجسد إلا وهي القلب" أو "استفت قلبك وأن أفتوك وأن أفتوك" أو "لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته"، أو "الحكمة ضالة المؤمن ينيشدها أنا وجدها"، إننا نجد عشرات، بل مئات، من مثل هذه الدرر في معانيها ومبانيها.

ومن ثم فلا يجوز أن نستبعد السنة القولية، ولكن يمكن القول إننا نعمل لتتقنتها طبقاً لمعايير تستلهم من القرآن.

وهناك جانب آخر لا يقل أهمية.

أن الرسول لم يكن ليبين القرآن فحسب، ولكنه كان يعلمهم الحكمة.

وظن الشافعي أن المقصود بالحكمة هي السنة، ولكن القرآن الكريم يستخدم الكلمة في مواضع يستبعد معها تماماً أن تكون هي السنة، فقد أوتي داوود الحكمة، وأوتي لقمان الحكمة، وأوتي النبيون الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)، بل إن الرسول نفسه تحدث عن الحكمة بما يبعتها عن أن تكون السنة عندما قال الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق بها.

الرسول لا بد أن يكون في المعرفة أعلى من مستوى أكبر الفلاسفة حتى يمكن أن يعلم صحابته الحكمة، هذه الحكمة التي صنعت أبا بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبا عبيده وغيرهم من قادة المسلمين الذين رفعوا لواء الإسلام وفاقوا أعظم الساسة ورجال الدولة والدعاة.

وهو أيضاً لم يكن يعلمهم الحكمة بالكلام ولكن بالعمل وبأنه كان المثال المجسم لما يكون عليه النبي، والحكيم والمعلم.

وهذا عنصر هام لأنه يمثل القيادة ويضع أمام الناس النموذج لما يكون عليه الزوج، والأب، والجار والصديق، وما تتصف به خلانقه من صدق وإخلاص وإيثار وحب وشجاعة وكرم.. الخ.

يكفي فحسب أن نتصور ما كان يمكن أن يصل إليه المسلمون لو أن الساسة والزعماء والرؤساء اتخذوا من الرسول القدوة، والمثال الذي ينسجون على منواله ويسيروا في آثاره، ويلتزمون بما ألزم به نفسه من صدق وإخلاص وأمانة.. الخ، واستعلاء على الشهوات وعدم الفتنة بالمال أو الثراء أو النفوذ أو السلطة.

أخيراً، ففي نفس كل مسلم صادق الإسلام وشيخة قوية عاطفية تربطه بالرسول وتجعله المثل الأعلى وتجعلهم يحبونه أفضل مما يحبون أنفسهم ويستمدون من هذا الحب جذوة عاطفة ودفاً وشعاع نور وهداية.

لهذا كله لا يمكن أيها الأخوة أن تكون قرآنيين فحسب، بل يجب أن نكون قرآنيين، ومحمديين أيضاً.

\* \* \*

- ٢ -

## قرآنيون فقط

### مع كل الاحترام للأستاذ جمال البنا

#### الزياتي القرآني(\*)

(وردنا هذا النصّ المدهش، والقيم، رداً على مقال الأستاذ جمال البنا (قرآنيون.. ومحمديون أيضاً) المنشور في هذا الموقع، وقد نشرناه تحت توقيع مستعار بناءً على طلب الكاتب، حيث أن بعض البلدان العربية، حتى مصر، "تحظر" القرآنيين، وتزج بهم في السجون! ومجال الردّ، والنقاش، مفتوح طبعاً).

(\*) اسم مستعار.

القرآنيون أو أهل القرآن لم يظهروا على مسرح الأحداث فجأة أو في العصر الحديث، كما قد يفهم من قولكم "ظهور القرآنيين"، بل كان وجودنا متواصل في المجتمع الإسلامي منذ اليوم الأول للإسلام، فيجب التفريق بين من يدعو اليوم للأخذ بالقرآن فقط نتيجة قرار شخصي توصل إليه بناء عن قناعة شخصية، وبين أهل القرآن الذين تلقوا المذهب عن مشايخ نقلوها عن من سبقهم من مشايخ وعلماء لأهل القرآن جيل بعد جيل، وأنا من تلك الفئة الأخيرة، فقد تلقيت علم المذهب القرآني على يد مشايخ أجلاء من أهل القرآن، توارثوا المذهب جيل بعد جيل من العلماء والمشايخ، وقد درست على أيدي أولئك المشايخ الأجلاء، في لقاء أسبوعي يدوم من ثلاث إلى أربع ساعات متواصلة لمدة ٥٢ أسبوع في العام، دون عطلة ولمدة أربعة أعوام بالإضافة إلى وجوب المتابعة والنظر في النصوص خلال باقي أيام الأسبوع، وقد أجزت، بضم الهمزة، من قبلهم في المشورة والاجتهاد واليوم بجانب عملي في حقل تخصصي التقني، فإنني أيضا أتولى تعليم المذهب القرآني لمجموعة صغيرة تزيد عن المائة بقليل من رجال ونساء، فضلا عن مشاركتي في التباحث وتبادل الآراء مع بعض علماء أهل القرآن، وتقوم زوجي أي زوجتي بلغة اليوم، بجانب عملها التقني في مجال تخصصها، بتعليم العديد من الفتيات والسيدات، أحكام المذهب القرآني، مما يسمح لي بالتعليق على مقالكم القيم.

إننا كقرآنيين، نرفض رفضا تاما الحديث النبوي، أي حديث، لأسباب لا مجال لذكرها هنا قد تسبب إحراجا للبعض وتوترا لا ضرورة له بيننا وبين أهل الحديث من السنة والوهابية والشيعية والأباضية والصوفية وأهل الظاهر وغيرهم، ونحن لا نريد توترا خاصة وإن بعض أهل الحديث يعد العنف مع من خالفهم أمراً مشروعاً، وقد تلقيت شخصيا تهديدات بالقتل على بريدي الإلكتروني، وما حدث مع الأسرة المصرية المسيحية في الولايات المتحدة ليس ببعيد، والتي ذبح جميع أفرادها بوحشية تقشعر لها الأبدان، فقط لأن الوالد كان يدخل في نقاشات ساخنة مع بعض أهل الحديث في "البالتوك"، وقد علمنا مشايخنا الأجلاء أن نخفي مذهبنا اتقاء للقمع الذي كان فيما مضى قمع السلطات الحاكمة، أما اليوم فإنه قمع مزدوج من السلطات التي تهادن الجماعات الأهلية المتطرفة، ومن المتطرفين، ف"التقية" حلال بنص القرآن، وأنا شخصياً أعلمها لتلاميذي من النشء القرآني، حتى يحفظوا على أنفسهم حياتهم.

كما لا أريد أن أخرج أحداً من القائمين على أمر هذا الموقع الرائع، لأن الحديث عن الحديث النبوي وأسباب رفضنا له على الإطلاق، أمر يدخل في صلب إسلام أهل الحديث، ورفضه يهدم الجزء الأكبر من مذاهبهم.

على إن هذا لا يمنعي من أن أعلق على بعض النقاط في المقال، فقد ذكرتم في المقال رأي المعتزلة، ومع تقديرنا للمعتزلة فإننا لا نتفق معهم، ولسنا منهم وليسوا منا، كما إن الخوارج أو الشراة، ليسوا بأهل القرآن، بل إنهم من أهل الحديث أيضا وإن انبثقوا عن أهل القرآن وخرجوا منا، إلا إنهم انحرفوا عن جادة الصواب والحق ولزموا طريق الحديث وتبنوا العنف الذي يرفضه أهل القرآن تماما إلا أن يكون دفاعا عن حياة المرء فقط، ونقول فقط، فلا حروب مقدسة عندنا، فنحن أهل سلم بناءً على نص القرآن، سواء كنا في حال ظهور أو حال التقية الأمر سيان لدينا، السلم السلم، وقد عشنا أكثر من ألف وأربعمائة عام دون أن نؤذي أحداً أو نسفك دماء مسلم مخالف أو غير مسلم، لذا فإن الخوارج ليسوا حجة لدينا.

إننا نرفض الحديث والسيرة والتفاسير بل وعلم النحو والصرف السيباوي، ونأخذ فقط بظاهر النص القرآني دون اجتهاد أو تفسير باطني، ولا نتفق مع سيادتكم في الأخذ ببعض الحديث ورفض البعض الآخر، لأن قبول حديث واحد، هو كقبول الباقي، لأن المعيار مطاط، فما قد تراه سيادتكم مرفوض مردول، قد يراه غيركم حسن مقبول، إن قبول حديث واحد في رأي مذهبنا، هو كحصان طروادة، الذي سيجرنا إلى أن نصبح

من أهل الحديث، وهو أمر لا نقبله مع احترامنا لهم، وهو ذات الأمر الذي حدث مع الخوارج أو الشراة عندما بدأوا في تبني أحاديث قليلة ثم توسعوا في الأمر حتى عدّو عندنا من أهل الحديث وخرجوا عن صراط الحق.

كذلك فإننا نختلف معكم في قولكم، فلا يمكن استبعاد السنة تماماً كما يتصور القرآنيون، نقول بل يمكن، وقد عشنا أكثر من ألف وأربعمائة عام دونها، والقرآن في معتقدنا وافٍ وكامل بنص القرآن، والمجال لا يتسع لذكر النصوص الدالة على ذلك.

إننا نختلف عنكم يا أهل الحديث في كثير من الأمور، وسأذكر أمثلة: نحن نرفض الحجاب للمرأة، والمرأة مطالبة فقط بستر عضوها التناسلي، بشرط ألا تستخدم تلك الرخصة لإثارة الغرائز، ولنا في كيفية الحكم على إثارة الغرائز رأي لا مجال لذكره، ولا عورة للرجل على الإطلاق.

ونحن نرفض قطع يد السارق بنص القرآن، ولا يوجد زنا على الإطلاق، ولنا كالبعض الذين يرون أن الجلد هو العقاب القرآني للزنا، بل لا يوجد زنا في القرآن، ويحرم البعض من أهل القرآن الزواج بأكثر من زوجة، ويحلّ جميع أهل القرآن زواج المتعة، ونحل الوهب وملكية اليمين التي استفاض في شرحها أهل القرآن كوجه من وجوه المعاشرة بين الرجل والمرأة وليس كنوع من العبودية، ولنا آراء في موضوع العدة، ورأي البعض من أهل القرآن أن لا تحريم للحم الخنزير والخمر، ورأي الجميع إن لا عقوبة على الجنس بين الذكور، ولا تحريم للتخنث ولا تحريم للمثلية الجنسية بين الإناث، وغير ذلك من الأمور التي تشغل الرأي العام هذه الأيام سواء في الشرق الأوسط أو أوروبا والولايات المتحدة، ويساوي بعض أهل القرآن بين المرأة والرجل في الميراث، ولا نرفض ولاية المرأة، ولا عقوبة لتارك الإسلام، ونرفض القول بأن غير المسلم ذمي، بل هو مواطن كامل له نفس حقوق المسلم دون انتقاص، كما عليه نفس واجباته في المجتمع المدني.

أما الصلاة فإن شرحها يطول، وهناك أمور كثيرة لا مجال لشرحها هنا سواء لأن الموقع ليس موقعاً دينياً، بل موقع تبادل للآراء المستنيرة، وأيضاً حتى لا نتعرض للهجوم أو القتل، لأن الكثير مما قلناه ومما لم نقله يخالف تماماً أهل الحديث من سائر المذاهب.

مع العلم إن قرآننا هو قرآن أهل السنة من أهل الحديث وليس قرآناً مختلفاً، بل إن مصاحفنا التي نستخدمها في التعليم مطبوعة في المملكة السعودية.

إننا كقرآنيين ننظر للمستقبل بتفائل كبير، ونرى بأن المستقبل في الإسلام هو للمذهب القرآني، فزيادة التعليم والاستنارة بين الأجيال الجديدة، يصبح المستقبل للقرآن، مثلما يحدث اليوم للبروتستانتية في أمريكا اللاتينية والتي يزداد اعتناقها مع انتشار الحرية والتعليم والتحسين الإقتصادي، وكان خطأ المنحنى بين الليبرالية والبروتستانتية متلازمان، والمذهب القرآني مشابه للبروتستانتية في تمسكه بالنص المقدس فقط دون تقاليد متوارثة أو قوانين شفوية، ولكن هو الأقدم، فالمستقبل لنا، وكما صمدنا أكثر من ألف وأربعمائة عام في طي الكتمان، فسوف نستمر إلى النهاية، ولكن في العلن، فالحرية بدأت تطرق أبواب الشرق الأوسط.

- ٣ -

## إلى الشيخ بوزيان

سلام عليكم.. لقد دهشت لقراءة تعليقكم على مقالي "قرآنيون ومحمديون أيضاً" لأن ما تضمنه من معلومات جديدة علىّ تماماً، فالقرآنيون في القاهرة كان البارز فيهم الدكتور صبحي منصور والدكتور مشتهري (ابن الشيخ مشتهري الذي كان رئيساً للجمعية الشرعية)، وكل واحد منهم آوى إلى الظل بعد فترة من النشاط وليس لدي أي فكرة عن تنظيمكم.

أريد أن أؤكد لك إنني أؤمن بحرية الفكر إلى آخر مدى "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، كما قال القرآن وإنني لا أعتبر الخلاف في الرأي سبباً في عداة، بل أرى أن الاختلاف ضروري وأن الله تعالى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، بل أرى أن التناقض نفسه لا يكون دائماً النفسي، وقد يكون وجهاً آخر لعملة واحدة ولك أن تستأنس بقول الله "وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (سبأ: ٢٤).

وأنا أتفق معكم في نقاط عديدة منكم في نقاط أكثر عدداً، فمن النقاط التي أتفق معكم فيها الأخذ فقط بظاهر النص القرآني دون اجتهاد أو تفسير، وقد رفضنا كل ما تقدم من تفسير للقرآن الكريم من ابن عباس حتى سيد قطب باعتباره إفتياً على القرآن وإسقاطاً بشرياً عليه، ولأن القرآن يفسر نفسه بنفسه ويعطي أثره بالانطباع.

أنا أتفق معكم في استبعاد الحجاب، وكذلك في استبعاد الحرب "الجهادية المقدسة" كأننا ما أطلقوا عليها، والحرب في الإسلام كما يقدمها القرآن هي دفاع عن حرية الاعتقاد والحيلولة دون فتنة المؤمنين عن دينهم، كما نرى أن المبرر الوحيد للقتل هو القتل العمد.

ونحن نستبعد رجم الزاني المحصن، كما أن القرآن والسنة لم يقرروا عقوبة على الشذوذ الجنسي، وتركنا ذلك للمجتمع، فقال فيه الفقهاء ما قالوا.

وقد دخلنا في معركة مع شيوخ الأزهر لأن بعضهم أفتى "بسجن" تارك الصلاة، وقلنا إن القرآن والرسول لم يقرروا عقوبة دنيوية على ترك الصلاة، ولا تزال رعاها دائرة.

ونحن معكم أيضاً في أن غير المسلم لا يُعد في هذا الزمن "ذمياً"، ولكن مواطناً له كامل حقوق المواطنة التي تنبثق من أن "المواطنة" إنما تنشأ عن اتخاذ الوطن أو الموطن، فكل من عاش على أرض هذا الوطن فهو "مواطن" دون أي تفرقة.

وأنا في الآراء أعتد على القرآن، ولكني لا اعرف تخريجكم لرفض قطع يد السارق أو عدم وجود زنا، وهناك نصوص صريحة على ذلك في القرآن، يا حبذا لو أفدتموني في هذه النقطة.

وأنا وإن لم أنكر السنة، فلست بعيداً عنكم لأنني في خضم التمييز بين الحديث الصحيح وغيره وضعت ١٢ ضابطاً مستمدة من القرآن، فما يتفق منها مع القرآن يمكن أن يكون منسوباً إلى الرسول، أما إذا اختلفت فلا يُعد ملزماً، وعلى هذا الأساس استبعدت حديث "من بدل دينه فاقتلوه" (عن عكرمة وجاء في البخاري)، ورفضت أي حد على الردة أو الاختلاف في الاجتهاد.

وأخيراً فإننا نذهب إلى أن السنة ليس لها تأييد القرآن، وأنها تستمر ما اتفقت مع التطور والمصلحة والعدل، فإذا تخلف عدل عنها وعدنا إلى القرآن.

ولا أعطي نفسي حق اقتراح لكم يتعلق بمعتقداتكم، ولكني أعتقد أنكم لو سلكتم مثلنا لكنتم أدنى إلى النجاح وإلى تحقيق الخير من الأسلوب الذي اتخذتموه، لأن ما سلكناه يحقق تقريباً معظم ما انتهيتم إليه دون الدخول في معركة ستبدد فيها الجهود وجعلتكم تعيشون لألف عام كما تقول في سرية.

وهناك ناحية أخرى أشرت إليها في مقالي، هي التفرقة بين الرسول وبين السنة، فدور الرسول أعظم من السنة.

ويا حبذا لو قرأتم كتابي "السنة ودورها في الفقه الجديد"، وهو الجزء الثاني من "نحو فقه جديد".

وأتمنى لكم التوفيق،،،،

## تجديد الخطاب الديني

عرفت البشرية الدين من فجر تاريخها، وإذا كان تاريخها المعروف يعود إلى عشرة آلاف عام، فإن البشرية قد أمضت سبعة آلاف عام منها في ديانة وثنية تختلط بالخرافة فقدماء المصريين عبدوا الشمس والنيل والحيوانات واليونان والرومان عبدوا آلهة اخترعوها واسكنوها جبلاً خرافياً "الأولمب" والهنود والصينيون والفارسيون عبدوا الخير والشر النار والنور.. الخ.

ولم تتحرر البشرية من عبادة الوثنية وخرافاتهما إلا في قرونها الأخيرة، أي منذ ثلاث آلاف سنة بدفع اليهودية فالمسيحية فالإسلام، ودخلت هذه الديانات في صراع عنيف مع الديانات السابقة عليها، ليس فحسب لأن هذه الديانات كانت ديانات الحكام والملوك "كان من حق مجلس الشيوخ في روما تعيين القياصرة الذين يرفعون إلى مستوى الألوهية"، ولكن لأن الجماهير قد تشربت الوثنية وخرافاتهما وأساطيرها بحيث أصبح من العسير عليها أن تؤمن بالأديان السماوية، وتأمل تعجب العرب من الرسول الذي يريد أن يجعل الآلهة إلهها واحداً "إن هذا لشيء عجاب".

ومراجعة كفاح هذه الأديان يثبت ذلك فتاريخ بنى إسرائيل حافل بمراجعة شعب بنى إسرائيل لموسى نفسه، وتمنيهم العودة إلى مصر بخيراتها وعبادتهم العجل الذي كان المصريون يعبدونه ثم بعد ذلك لا يكاد يمر عقد من السنين دون أن "يقع الشعب في الخطيئة" ويخالف الناموس فيحل عليه غضب الله ثم يتوب الشعب فيتوب الله عليه، أما المسيحية فقد دخلت في حرب مع اليهود لأنها جاءت لهداية خرافهم الضالة، وعندما توصل زعمائهم للحكم على المسيح بالصلب ذكرهم الحاكم الروماني بأن من حقه أن يعفو عن أحد المحكوم عليهم، وكان منهم لص يدعى بارباس فخيرهم فيمن يعفو عنه فقالوا جميعاً، وبصوت واحد "بارباس!"، ثم دخلت في صراع عنيف مع الوثنية اليونانية/ الرومانية التي كانت مزدهرة في الإسكندرية، وكان أبرز مظاهرها اغتيال هيباتا اغتيالاً مروعاً، ثم لما دخلت الإمبراطورية الرومانية المسيحية، تصادمت المذاهب المختلفة فيها - وقد كان منها مذهب الأقباط المصريين الذين تعرضوا لاضطهاد البيزنطيين اضطهاداً لم يخلصهم منه إلا الفتح العربي، وأخيراً فقد كان عليهم أن يدخلوا في صراع مع بقايا المؤمنين بالديانة المصرية القديمة، رغم ما يقال من تأثر المسيحية المصرية بالتثليث الذي وجد في الديانة المصرية، وأخذ أبرز صورته في عهد البطالمة، أما الإسلام نفسه وهو أبسط الأديان وأبعدها عن اللاهوت فقد شن عليه المشركون العرب حرباً شعواء امتدت من أشخاص الذين آمنوا حتى كادت تلحق بالرسول نفسه عندما تأمروا على قتله، وفوت عليهم الرسول ذلك بهجرته إلى المدينة.

وحتى عندما آمن المسلمون فإن كثيراً منهم لم يتقبلوا يسر الإسلام وقال القرآن عن الرسول: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ ، وعندما مروا بشجرة "ذات أنواط" كان المشركون يعلقون عليها مقدساتهم سألوا الرسول أن يجعل لهم "ذات أنواط" وكانت تلك هي المناسبة التي قال فيها الرسول "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" وقبل أن يتوفى بالفعل، وعندما عرف نبا مرض الرسول أرتد كثير من العرب، ولولا وقفة أبي بكر الحاسمة، الحازمة، لخسر الإسلام معظم العرب.

ما يهمننا من هذا العرض التاريخي هو أن طول عشرة البشرية للوثنية، وجدة عهدا "النسبي" بالأديان السماوية جعل رواسب الوثنية تتغلغل في نفوس الجماهير لتسقطها بعد ذلك على الأديان السماوية.. ومن ابرز هذه الرواسب السحر والجان والخرافة والكرامات والتقدیس والفكرة الشمولية للدين وأنه يغطي مجالات الحياة وإسقاط الصورة البشرية على "الله" تعالى لتكون أحكامه كما يتصورون.. الخ، وتم هذا بطريقة تدريجية، ولا شعورية بحيث أصبحت جزءاً من بنية الدين، ولم يعد سهلاً التفريق بين الدين الحق وبين ما دمج فيه من رواسب وثنية.

لقد دخل المسلمون الإسلام وهذه الرواسب موجودة وساعد عليها العامل الذي سنشير إليه في النبذة الثانية، إلا وهو سرعة انتشار الإسلام وإقبال الفارسيين واليونانيين والهنود والترك على الإيمان به، ولدى هؤلاء رواسب عديدة جداً أدت إلى تحويل الآراء الفقهية والنظرة الدينية عما أراده الإسلام.

إن هذه الحقيقة تجعل من الضروري لكي نتوصل إلى - تجديد الخطاب الإسلامي - أن نتوصل أولاً إلى التمييز ما بين رسالة الإسلام التي أريد بها إنقاذ البشرية من الوثنية، وما بين الجذور والرواسب الوثنية المتغلغلة في فهم البشرية للدين، وأقحمت في الإسلام.

- ٢ -

كان العامل الرئيسي الذي تحكم في الإسلام وانعكس أثره عليه هو السرعة التي تمت بها "أسلمه" المجتمع، فلم تزد سنوات الدعوة على يدي الرسول عن ٢٣ عاماً استكمل فيها القرآن وفتحت الأنحاء القاصية للجزيرة العربية ثم امتد الزحف الإسلامي في سرعة لم تسبق (باستثناء حالة الإسكندر المقدوني والقياس عليها لا يستقيم تماماً) فخلال ثمانين سنة كان الإسلام قد بلغ حدود أوروبا، وحاصر المسلمون القسطنطينية وفتحوا فارس والهند والأفغان ومصر وشمال أفريقيا.

أدت هذه السرعة الكاسحة إلى واقعة لم يكن منها مفر، وإن لم يمنحها المؤرخون الأهمية التي تستحقها تلك هي أن هذه المناطق المفتوحة لم تستوعب الإسلام تماماً لثلاثة أسباب:

أولاً: قصر مده الدعوة النبوية. وأن إسلام كثير من العرب جاء في السنوات الثلاث الأخيرة لحياة الرسول، فلم يستوعبوا قيم الإسلام، وحال قصر المدة دون قهر التقاليد القديمة المتأصلة فيهم، ومن هنا فإنهم لم يكذبوا بوفاء الرسول حتى أرتد معظم العرب ولم تحتفظ بإسلامها سوى مكة والمدينة، وكان دور أبي بكر وطريقة تعامله مع المرتدين عاملاً حاسماً أعاد الجزيرة العربية إلى الإسلام.

العامل الثاني: أن الزحف الإسلامي امتد إلى بلاد ذات حضارات عريقة لها نظم إدارية وسياسية وفلسفات تختلف عن الإسلام. وقد آمن معظم أهل هذه البلاد لسماحة الإسلام، ولأن الإيمان بالإسلام كان يمنحهم كل حقوق المسلم دون تفرقة، وأن هذا أيضاً كان يخلصهم من الجزية، والحقيقة أن "الموالي" كما كان يطلق عليهم لم يدخلوا في الإسلام أفواجاً لهذه الأسباب فحسب، بل كذلك لأن التطلع في العلوم الإسلامية هو باب الصدارة المفتوح لهم، وكانوا أكثر تعرفاً من العرب على جوانب عديدة من الحضارة لذلك لم يلبث في خلال القرون الثلاثة للهجرة أن أصبحت الأغلبية من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من الموالي، بل لم تقف عجمتهم عائقاً عن اقتحام اللغة العربية، فوجد من علمائها من لا يستطيع نطق الراء أو الحاء، ومع ذلك نبغوا في علوم العربية وكان إمام أئمة اللغة سييويه وهو من الموالي، بل كان أحد أصحاب القراءات المعروفة من أصل قبطي.

ومع إخلاص هؤلاء الموالي في خدمة الثقافة الإسلامية فإنهم حملوا إليها سواء كانوا واعين أو غير واعين، رواسب ومزاج حضاراتهم القديمة التي توارثوها كما توارثوا الدم واللون.. الخ، وحدث "إسقاط" يكون أحياناً لا شعورياً على الثقافة الإسلامية، كما يأخذ أحياناً أخرى شكل "الإسرائيليات" والأساطير التي ملأت كتب التفسير وفي أصول الفقه ظهر بوضوح التأثير بالمنطق الأرسطي حتى قال الغزالي إن من لا يعلمه لا يوثق بكلامه أصلاً، وظهر لاهوت إسلامي في شكل علم الكلام يبعد كل البعد عن منهج القرآن.

العامل الثالث: صاحب هذا التوسع هجوم سريع على الخلافة وتقاليده الحكم النبوي وحولت إلى ملك عضوض على يدي معاوية سنة ٤٠ هجرية، ويمكن القول إن الخلافة الراشدة انتهت مع طعن عمر بن الخطاب وأن عثمان بن عفان تأثر بالرواسب الأموية وخالف سنة الشيخين، ولما حاول على بن أبي طالب إعادة الأمر إلى ما كان عليه استحال ذلك، وكان يجب أن يُقتل دون صاحبيه لأنه أراد أن يقف في سبيل التطور.

وتقتضى طبائع الأشياء بأنه ما أن يظهر دين جديد يختلف بالطبع عن الدين القديم حتى يظهر له من سدنة الدين القديم والمؤمنين به أعداء يعملون للكيد لهذا الدين الجديد بكل الوسائل ومنها إصاق أحكام أو نصوص ليست منه، ولا يجوز أن ننسى حقد الفرس على عمر بن الخطاب الذي كان السبب في اغتياله، فما يظن عاقل أن يقتل لخلاف على دراهم، وقد ظهر أمثال هؤلاء للإسلام في سنواته الأولى، وتحدث القرآن الكريم عن الذين قالوا ﴿آمَنُوا وَجَاءَ النَّهَارُ وَكَفَرُوا آخِرَةً﴾، ﴿وَقَالَتْ طَانِقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاءَ النَّهَارُ وَكَفَرُوا آخِرَةً لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ {٧٢ آل عمران} وقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ {٢٦ فصلت}.

وقد يجوز لنا أن نتساءل كم طفل من أطفال يهود بنى قريظة الذين قتلوا لم يكن قد بلغ الحلم، وعاش بين المسلمين وكم امرأة منهم سبيت ودخلت البيت المسلم، ولعلها قد ولدت وربت وليدها على بغض الإسلام، وليس هذا إلا حالة واحدة من حالات الكيد للإسلام بمجرد ظهوره.

وعندما نعلم أن اليهود، وبالذات يهود بنى قريظة حاولوا التأثير على عمر بن الخطاب فستكون لدينا فكرة عن مدى ما حاولوه إذ دفع أحدهم إليه بصحيفة من أخبارهم يقرأها، وقبل ذلك عمر بن الخطاب بدافع الفضول والتعرف على فكرهم وعندما ذكر ذلك للرسول غضب غضباً شديداً، ونهى عمر عن ذلك وقال: "أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جننتم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني".

وفي موقعة اليرموك ضم الصحابي الجليل والمحدث الدقيق والذي يعد من أوثق الرواة في الحديث عبد الله بن عمرو بن العاص حمل زاملتين (ناقنتين) من أحاديث أهل الكتاب، ولسنا نعلم على وجه التحقيق هل اختلطت هذه الأحاديث بأحاديث صحيفته القديمة التي كان يسميها الصادقة أم لا؟ ولكن السيدة عائشة عندما علمت بذلك تطرق إليها الشك، ولم تعد تأخذ حديثه مأخذ التسليم.

فإذا كان أمثال عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وكل واحد منهما إمام في بابه، كان هدفاً عمل بعض اليهود للتأثير عليه، فما بالناس بالباقي.

ونحن نؤمن أن كعب الأحمار ووهب بن منبه وابن جريج، وفيما بعد ابن سبأ قد أضافوا إلى الحديث وقدموا من التفسيرات ما يعد مناقضاً للإسلام وجاز هذا حتى على مثل أبي هريرة الذي روى عن كعب الأحمار، كما أن معاوية نصب منبراً في مسجد دمشق ليقدم كعب الأحمار "الرقاق" وحشوها أكاذيب.

نرى أثر هذه العوامل في جميع جوانب المجتمع الإسلامي في السياسة وفي الفقه، وفي الحديث، وفي التفسير، بل في العادات الاجتماعية التي كان أبرزها حجب المرأة وإقصائها عن المجتمع كما كان الحال في فارس القديمة وفي أثينا، وإعمالاً لرأى أرسطو في دونية المرأة، وإذا كانت أراء أرسطو اخترقت أصول الفقه فهل تعجز عن اختراق آداب المجتمع.

\* \* \*

بالإضافة إلى هذه العوامل الخاصة بالملابس التي اكتنفت ظهور وانتشار الإسلام، فيجب أن لا ننسى أن وسائل البحث ومعدات الدرس كانت محدودة للغاية قبل ظهور المطبعة، وتيسير وسائل الاتصال، وكان على المحدث أن يسافر من المدينة إلى دمشق أو الفسطاط بحثاً عن حديث. ومع أن علماء الإسلام تغلبوا إلى حد ما على هذه الصعوبات بحكم إيمانهم العميق، ولأن العالم الإسلامي كان مفتوحاً أمام كل سكانه، وأن الحج كان باباً مفتوحاً قدر ما كان ملتقى دولياً فتظل الحقائق تفرض نفسها فإيمان العلماء الإسلاميين مكنهم من تدبيح عشرات الألوف من المجلدات الضخمة في التفسير والحديث والفقه وبقية العلوم وبقدر جسامته ما وصل إلينا إلا أن ما لم يصل ربما يكون أكبر فقد أتت جائحة المغول لبغداد والأسبان للأندلس على جانب كبير من المراجع الإسلامية، وقيل إن مياه دجلة اسودت من حبر الكتب التي قذفت إليها بها ومع هذا فإن مكتبات الأسكوربال وليدن وغيرها تظفر بمراجع لم تنشر حتى الآن.

وهذه الحقيقة توضح لنا كيف كافح العلماء المسلمون الأوائل، وكيف حاولوا التغلب على صعوبات قلة معدات البحث وصعوبة المواصلات بحيث يمكن القول إنهم كانوا - بلا جدال - أفضل العلماء الذين ظهوروا في زمانهم، وكانوا يسبقون بمراحل العلماء في العالم الأوربي، لكن هذا لا يمنع من أن جهدهم العظيم ما كان يمكن أن يخلص من المؤثرات الضرورية القاهرة التي تكلمنا عنها كما أنهم كانوا أبناء عصرهم وكان عصرًا مظلمًا مغلقًا وما كانوا يستطيعون التحرر منه فانعكست طبيعته على أحكامهم، وأخيراً فإنهم وقفوا في الوقت الذي كان علماء أوربا يبداون التقدم.

وهذه ملاحظة هامة لأنها تنصف علماءنا الأوائل وأنهم بذلوا غاية جهدهم، ولكن ما كان يمكن أن يتحرروا من روح عصرهم، فالذنب في الحقيقة هو العصر الذي عاشوا فيه، وما أشرنا إليه من عوامل اكتنفت هذا العصر، وأشرنا إليها، أعنى (فساد النظام السياسي) ثم تأثر الموالى والجماهير الإسلامية برواسب الحضارات القديمة يونانية - فارسية - هندية - ثم تركية. خاصة بعد تغلب عناصر لا تكاد تفهم العربية - ومن لا يفهم العربية لا يفهم القرآن. ومن لا يفهم القرآن لا يأخذ الصورة الحقيقية للإسلام وأخيراً تقلص دور جزيرة العرب التي كان يمكن أن يكون أهلها سدنة وحرساً للإسلام منذ تحولت الخلافة إلى ملك عضوض سنة ٤٠ هـ حتى إلغاء مصطفى كمال للخلافة سنة ١٩٢٤.

\* \* \*

وكانت النتيجة الأخيرة أن التراث الإسلامي - وبالذات في مجالات المعرفة الإسلامية الرئيسية: التفسير - الحديث - الفقه، خضع لعوامل بعيدة كل البعد عن روح القرآن وظهرت القضية التي هي أهم القضايا فيما نحن بصدده. إلا وهي إن الإسلام الذي يتعبد به المسلمون اليوم ليس هو إسلام القرآن والرسول، ولكنه إسلام الفقهاء، والمحدثين والمفسرين الذين وضعوه خلال ألف وأربعمائة عام، وأن هذا الإسلام يختلف عن إسلام القرآن وقد أوضحنا ذلك بالأدلة العملية في فصل "ثلاث مستويات لمرجعية الفقه" في الجزء الثالث من كتابنا نحو فقه جديد، إذ قارنا نصوص القرآن في خمسة مواضع هي: (١) الإيمان بالله. (٢) حرية الاعتقاد. (٣) المرأة. (٤) العدل. (٥) الرقيق بالأحكام التي أصدرها الفقهاء فظهر الفرق شاسعاً، قد يصل إلى التناقض فبينما

يقول القرآن: ﴿من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، ﴿لا إكراه في الدين﴾، يروى لنا الفقهاء حديثاً "من بدل دينه فاقتلوه" ثم لا يفتوا عند هذا بل يبدعوا صيغة "من جحد معلوماً من الدين بالضرورة يعد كافراً" وبينما يقول القرآن عن المرأة: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾، ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وأسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ { ٣٢ النساء }، ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحبيبه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ { ٩٧ النحل }، يقول الفقهاء "المرأة عورة" "ناقصات عقل ودين" "لا أفح قوم ولوا أمرهم امرأة.. الخ، وهي كلها أحاديث ضعيفة أو لها ظرف خاص.. الخ، وبينما يقيم القرآن الدليل على وجود الله بالخلق وأن هذا الكون لا بد له من خالق ويستخدم منطقاً يقوم على البديهة "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون" يأتي الفقهاء بشقشقة من آثار اليونان ويتفرغون لقضايا مثل الصفات وغيرها.. الخ، وبينما يكون العدل هو طابع الإسلام في القرآن ويكاد يكون بصمته فإننا نجده باهتا في كتب الفقه، وبينما يقول القرآن عن الرق "فإما منا بعد، وإما فداء" فإن الفقهاء يقررون أن الرق شرعة خالدة إلى يوم القيامة ويظهر فيهم من يرى أن استرقاق غير المسلم أفضل من عتقه لأن هذا يتيح له فرصة الإطلاع على فضائل المسلمين! وقد يدفعه للإسلام ولا يتسع مجال الورقة لتعداد الفروق وقد عالجتنا الموضوع في عشرين صفحة من كتاب "نحو فقه جديد" الجزء الثالث.

- ٣ -

تلقت الأجيال الحديثة التراث القديم كأنه قضاؤها وقدرها.

وعكف العلماء المحدثون على التراث القديم ينبشون فيه فيكشفون خافيه، ويفسرون مبهمه ويعلقون الشرح على المتن والحاشية على الشرح.. الخ، ويصدرون الأحكام تبعاً له، وكان هذا في الحقيقة هو أكبر أسباب تخلف المسلمين ويكاد يكون هو الرد الأول على السؤال الخالد "لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم" لأن هذا التراث لا يمثل الإسلام نفسه، لا يمثل القرآن ولا يتطابق مع عمل وقول الرسول ولكنه فهم هؤلاء الأئمة في ظل عهود مغلقة، جاهلة، مظلمة ووسط صعوبات لا حصر لها، وأن هؤلاء العلماء على نبوغهم وإخلاصهم – ليسوا ملائكة معصومة – وبالتالي فإن الأحكام المستخلصة من مقدماتهم أحكام خاطئة، وبالتالي يبدأ التخلف، فمن الواضح أنه إذا كان الفقه يأمر بطاعة الحاكم "وإن أخذ مالك وجلد ظهرهم" ويأمر بحبس النساء في البيوت وتحريم اختلاطهن بالرجال وأن لا يتعلمن الاقصار السور للصلاة بها، وإذا كان هذا الفقه يوثن الصلاة ويهمل الزكاة، ويحصر العلم فيما تجب العبادة به. ويوجب التقليد فلا بد من التأخر.

المشروع الذي نتقدم به، ولا نرى في الحقيقة سواه، إذا أردنا النهضة بالإسلام في منتهى البساطة والمعقولية والالتزام – هذا المشروع هو العودة إلى القرآن الكريم مباشرة، دون تفيد بتفسيرات المفسرين، وضبط السنة بمعايير من القرآن إذ ثبت أن السند لا يمكن أن يكون معياراً لأنه جزء من عملية الوضع التي فشت في الحديث فلم يبق إلا الاحتكام إلى القرآن. ولما كانت السنة مبينة للقرآن، فمن البديهي أنها تلتزم بالقرآن، وأخيراً عدم الالتزام بالأحكام الفقهية التي وضعها أئمة المذاهب الأربعة أو غيرهم.

إن ما نراه ليس تجديداً، بل هو عودة إلى الأصول، عودة إلى المنابع، هو تطبيق للمقولة "لا يصلح آخر أمر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها" وقد صلح أولها بالقرآن وبالرسول.. فما نقترحه هو أكثر الحلول "رجعية" إذا جاز التعبير..

إن هذا الحل سيحررنا من كل أحكام التراث التي كانت من أكبر أسباب تخلف المسلمين وسيعيدنا إلى القرآن وهو أصلاً كتاب هداية وتحرير وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

لقد جاوزنا بالفعل فيما ذهبنا إليه من دائرة القول والمطالبة إلى دائرة العمل والتطبيق، في عدد من الكتب أبرزها نحو فقه جديد. وعندما حققنا هذا توصلنا إلى النتائج الآتية التي تجد البرهان عليها في كتب "دعوة الإحياء الإسلامي" التي جعلنا لكل موضوع من الموضوعات التالية كتاباً خاصاً.

لقد وجدنا:

(١) القرآن الكريم يفتح باب حرية الفكر والاعتقاد على مصراعيه، بل ويجعلها أمراً خاصاً بالفرد لا دخل للنظام العام فيه أنظر كتاب "الإسلام وحرية الفكر".

(٢) القرآن الكريم يحقق وحدة الجنس البشري ويقضى بالمساواة بين الناس جميعاً سواء كانوا بيضاً أو سوداً، أغنياء أو فقراء، رجالاً أو نساءً، وعلى اختلاف مذاهبهم لأنهم هم "أبناء وبنات آدم" ويوجب التقارب بينهم ولا يجعل التفاضل إلا للتقوى أي للعمل والخلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ {١٣ الحجرات}.

(٣) الإسلام كرم الإنسان والجنس البشري عندما جعله خليفة الله على الأرض بعد أن خلقه في أحسن تقويم ووهبه السمع والبصر والعقل والقلب، ورفض العصبية وتفضيل جنس على جنس. أنظر كتاب "منهج الإسلام في تقرير حقوق الإنسان".

(٤) الرسول كرم الجسم الإنساني بالحماية بعد أن كرم الضمير والفكر بالحرية، فحرم كافة التعذيب أو سوء المعاملة وجعل عقوبة من يصفع عبده أن يحرره.

(٥) الإسلام وضع مبدأ القضاء على الرق بصورة صريحة ليس فيها لبس عندما حصره في أسرى القتال مع المشركين وجعل مصير هؤلاء الأسرى "فإما منا بعد، وإما فداء" كما قال القرآن الكريم وكما طبقه الرسول في أسرى غزوة بدر وهوازن، فإذا كان المسلمون لم يطبقوه فهذا ذنب المسلمين، أو ذنب فقهاءهم أو ذنب التطور الذي حال دون تحرير الرقيق حتى ظهرت الآلة وليس ذنب الإسلام.

(٦) الإسلام يقر التعددية لأنه عندما جعل التوحيد صفة لله، فإن ذلك يستتبع التعددية فيما عداه، وتوحيد ما عداه يكون شركاً ومن هنا فقد تقبل القرآن تعددية الأديان. وتعددية الرسل وتحدث عن رسل لم يقصص علينا خبرهم، وتحدث عن الأنبياء جميعاً كأخوة. أنظر كتاب "التعددية في مجتمع إسلامي".

(٧) أوجب الإسلام القتال عندما يُراد فتنة المسلمين عند دينهم، فعندئذ يجب عليهم القتال، ويكون القتال عندئذ دفاعياً، ويعد دفاعاً عن حرية العقيدة، وهذا هو تبرير كل الآيات التي أوجبت القتال "لكي لا تكون فتنة" وإذا كان إخواننا الأقباط يقولون الدين لله، فقد قالها القرآن قبلهم "ليكون الدين كله لله".

أما الذين لا يدينون بدين الإسلام، ولكنهم لا يحاربون المسلمين فهؤلاء أوجب القرآن البر بهم والعدل معهم ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِبُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِبِينَ﴾ {٨ الممتحنة}، وهذه الآية هي الحاكمة في الموضوع لأن كل ما جاء في القرآن الكريم من قتال إنما هو لدفع الفتنة، فإذا لم يكن هناك فتنة، فلا قتال ولكن بر وقسط. انظر كتاب "الجهاد".

حرر القرآن المرأة وجعلها كالرجل سواء وأن استثنى درجة وأعتقد أن النساء في أمريكا وبريطانيا وسويسراً يتمنين أن تكون الفروق بينهن وبين الرجال درجة وأثنى على ملكة سبأ.

أما الحجاب فقد فرض على الإسلام ولم يفرضه الإسلام وقد أجازته بالنسبة لزوجات الرسول باعتباره باباً أو ستاراً بينهن وبين الناس تكريماً لهن، أما بالنسبة لعامة النساء فلا حجاب، ولكن لا خلاعة ولا تبرج يجعل عنصر الأنوثة في النساء يطغى على عنصر الإنسان فيهن، وكيف يتحجبن وقد كان النساء يتوضأن مع الرجال في وقت واحد من مجرى واحد، كما جاء في البخاري.

انظر كتاب "الحجاب وكتاب المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء"

أثبت البحث الدقيق في أصول الإسلام أن الإسلام شيء، والدولة شيء آخر، وأن الإسلام لم يرد للأنبياء أن يكونوا ملوكاً أو مؤسسي دول وإنما أرادهم دعاة دورهم التبليغ وجردهم من كل سلطة حتى أن يكون أحدهم "وكيلاً" وأن تجربة دولة المدينة لم تكن تطبيقاً أو عملاً لأصول في العقيدة ولكنها كانت استجابة لتطور الأحداث، ومع هذا فإن دولة المدينة التي حكمها الرسول والخلفاء الراشدين لا يمكن أن تعد نموذجاً يعمل المسلمون لاستعادته لأن دولة المدينة لم تستكمل كل مقومات الدولة، فلم يكن لها جيش محترف، ولا سجون، ولم تفرض ضرائب ولم تكن سلطة قمع وهذه هي خصائص الدولة، كما كان على رأسها نبي يوحى إليه وهذه تميزها عن الدولة بالاصطلاح المعروف أما دولة الخلفاء الراشدين التي انتهت بطعن عمر بن الخطاب فكانت سيراً في أذيال دولة المدينة وتطلبها سياق الأحداث، "راجع سقيفة بنى ساعده" فلا يمكن القياس عليها.

وأوضحنا أن القرآن والتاريخ يثبتان أن السلطة مفسدة، وأنها إذا دخلت مجال العقيدة أفسدتها كما حدث عندما تحولت الخلافة الراشدة على يدي معاوية إلى ملك عضوض، وفي كتابنا "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" أثبتنا أن السلطة أفسدت الإسلام، والاشتراكية، والمسيحية، واليهودية، وأن شعار "الإسلام دين ودولة" أسيء فهمه وأن صحته الإسلام دين وأمه.

لقد حددنا موقف الإسلام من العلمانية، وقلنا إنه قريب جداً منها لأنه – مثلها – يدعو إلى الفصل بين الدولة والدين (كما دعونا إلى ذلك في كتاب "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" وأن الدولة في مجتمع إسلامي لا تكون إسلامية ولا علمانية ولكن مدنية تقصر عملها على مجال العمران ورفع المستوى المادي والأدبي للشعب، بل اقترحنا حذف مادة "دين الدولة الإسلام" لأنها تكون تعلة للاستغلال ولإثارة الحساسيات.

انظر كتاب "موقفنا من العلمانية، والقومية، والاشتراكية".

أما موقف الإسلام من الديمقراطية فإن الإسلام له أدواته الخاصة وهي الشورى كما أنه يميل لأن يكون الحكم حكم القانون أكثر مما هو حكم الأصوات وهو ما تمناه فلاسفة أثينا. وإذا كانت الاشتراكية دعوة للعدالة، فإن الإسلام قد سبقها لأن "العدل" هو الطابع الرئيسي للإسلام وما أكثر ما ذم القرآن الظلم والطغاة والمترفين والمسرفين.. الخ، ولكن الإسلام مع هذا يقر الملكية لأنها ثمرة الكد والعمل وقرينة الشخصية فإذا أساء المالك استخدام حقه فهنا يتصدى له الإسلام لأن الملكية حتى لو كانت حقاً، فإن إساءة استخدام الحق في الإسلام تبرر التدخل وإصلاح الخلل. "انظر الكتاب السابق".

\* \* \*

إن من المهم أن نركز في النهاية على ثلاثة أمور:

**أولاً:** أن هذه النتائج مستخلصة من صريح الآيات المتكررة، ومن روح الإسلام ومن عمل الرسول ومما تقضى به "الحكمة" وهي مصدر من مصادر الإسلام قرنها القرآن بالكتاب في أكثر من مناسبة عندما تحدث عن "الكتاب والحكمة" وأشار إليها الرسول باعتبارها طلبه المسلم وضالته، وأن عليه أن ينشدها أنى وجدها.

أما الخلاف فهو مع أقوال الفقهاء الذين اصدروا أحكامهم في ضوء عصرهم وملابساتهم وأفهامهم.

**ثانياً:** أن هذا المنهج يتفق مع توجيه القرآن للمسلمين أن يفكروا ويتدبروا، ويعملوا أذهانهم وعقولهم، وأعتبر أن الغافلين شر من الأنعام ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ {١٧٩ الأعراف}.

بل إنه يتفق مع إرادة الأئمة أنفسهم الذين دعوا الناس لأن لا يقلدوهم وقالوا كل واحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا الرسول وقالوا "هم رجال ونحن رجال".

هل نفعنا إلا ما قاله معاذ وتقبله الرسول "أجتهد رأيي ولا آلو"؟ وهل نفعنا إلا ما فعله عمر عندما جمد النص عندما انتفت العلة التي من أجله نزل؟ وهو تكييف لو اتبعه الفقهاء لتقدم الفقه، ولكنهم جبنوا ونكصوا.. بل هل نفعنا إلا ما طلبه القرآن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ {٧٣ الفرقان}، ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾!!! {٧٨ النساء}..

ومن سقط القول الإدعاء بأننا لا يمكن أن نبلغ مبلغ أبي حنيفة أو مالك والشافعي، فلدينا علمهم ولدينا أضعاف أضعاف علمهم، ولدينا من وسائل الدرس ما لم يحلموا به.

**ثالثاً:** إن أي تراجع عن هذا المشروع، أو انتقاص منه أو الاكتفاء بإصلاحات جزئية أو محاولة تنقية التراث.. الخ، كلها ستكون مما حكه لسير التطور ومحاولة لتعويقه ولن يتجدد الإسلام، لأنه إنما يتجدد بأصول فقه جديدة غير التي وضعها الأئمة، وبمقاصد شريعة غير التي وضعها الشاطبي، فلن يعسر على كل من يعمل ذهنه أن يرى نقط القصور فيها ولن يتم تجديد إذا قدمت السنة بالصورة التي يعرضها المحدثون ويسمح بوجود آلاف من الأحاديث الموضوعية والركيكة والمخالفة لروح الإسلام، ولن يتم تجديد إذا فهمنا القرآن عبر التفاسير من ابن عباس حتى سيد قطب.

لابد من التجديد، لأن الصورة التي قامت عليها هذه كلها أصبحت بالية مهلهلة لا يبقى عليها إلا التقديس، ولا خوف علينا من التجديد في هذه كلها ما دمنا نحتكم إلى القرآن ونلتزم به، ولا نختان ضمائرنا.

إن كل مفكر إسلامي حر لا يقبل الغشاوات ولا ينساق مع التيارات يؤمن بهذا. وإن كانت المؤسسة الدينية ستعارض هذا أشد المعارضة لأنها تؤمن أن من ليس منها أعنى لم يتخرج في الأزهر أو يضع على رأسه العمامة الحمراء - فإنه لا يكون أهلاً للحديث عن الإسلام فقد اعتبروا أنفسهم وحدهم "أهل الذكر" كأنما أخذوا من الله توكيلاً وميثاقاً واحتكروا لأنفسهم الإسلام - فهو حرفتهم ومصدر عيشهم ورزقهم فهم في الحقيقة لا يدافعون عنه وإنما يدافعون عن أنفسهم.

وقد وجد أمثالهم من قبل وسيجاوزهم التاريخ وسيذهبون في أمم قد خلت فما بكت عليهم السماء والأرض، ولا كانوا منظرين (\*).

(\* بحث مقدم إلى اللقاء التشاوري النوعي حول السبل العملية لتجديد الخطاب الديني في باريس ١٢ - ١٣ أغسطس ٢٠٠٣م، (لم ينشر).

## كيف تعامل الإسلام مع الضعف البشري

يعترف الإسلام بالضعف البشري، وأن هذا الضعف جزء من الطبيعة البشرية التي جبل الله عليها النفس البشرية "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"، "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"، "وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا".

ذلك أن الله تعالى لم يرد للإنسان أن يكون كالملائكة التي خلقت من نور ولا تعرف إلا التهليل والتسبيح، فقد خلقه من صلصال من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، فحمل كل ما في الأرض من كثافة، ثم نفخ فيه من روحه فسمما به إلى سماوات الضمير والإرادة ثم أرصد له الشياطين لغوايته وأرسل إليه الرسل لهديته، فهذا الكائن المعقد الذي يولد قطعة لحم لا تري ولا تسمع.. ثم ينمو فيزحف على أربعة.. ثم يقف على قدمين ويشب وتتكامل له الأعضاء كافة حتى يكون شاباً قوياً أو فتاة جميلة، يدفعه الطموح والإرادة وتضغط عليه محدودية الموارد، هذا الكائن لا بد أن يتعرض للمخاطر وليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة التجربة والخطأ فيخطئ ويتعلم من خطئه.

لم يستبعد الإسلام الخطأ على الإنسان، بل رآه أمراً طبيعياً، وقد جوز الخطأ على الأنبياء أنفسهم وهم المثل العليا للبشرية في غير ما كلفوا بتبليغه، فقال القرآن عن آدم: "فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً"، وعن سليمان: "وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً"، وقال عن يوسف: " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ"، وقال عن موسى: " وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا"، وقال عن ذي النون: "وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ"، وقال عن محمد: "وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ \* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ"، "وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا \* وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا \* إِذَا لَأَذُنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا"، ونحن لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات، لكن ظاهر الكلمات والسياق ياباها، وليس الأنبياء بعد بمعصومين لولا رحمة الله بهم وفضله عليهم، وليس ما هو أصرح من كلمة يوسف "وَالأ تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ".

يتعامل الإسلام مع هذا الضعف طبقاً لاستراتيجية طويلة تدوم مادام الإنسان ولا تقف إلا عند "الغرغرة" أي الدقائق التي قبل الموت عندما تفارق الروح الجسد.

وهذه الاستراتيجية ذات طبيعة إيجابية - حيوية - عملية وقوام هذه الطبيعة ما يمكن أن نسميه " المقاصة " أي مقابلة السيئات بالحسنات ولم يكن مناص من أن تكون هذه هي طبيعة الاستراتيجية الإسلامية، لأنه بعد أن سلم الإسلام بالضعف البشري وأن الإنسان سيقع في خطأ، وسيرتكب ذنباً لا محالة وبحكم طبيعته وخلال سنوات عمره الطويلة، فلم يكن من محل إلا " المقاصة " أي تقديم الحسنات والأعمال الطيبة والخيرة بقدر ما اضطره ضعفه البشري لارتكاب سيئات فتمحوها الحسنات السيئات.

والأساس في هذه المقاصة هو قول الله تعالى: "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ"، وقول الرسول (واتبع السيئة الحسنة تمحها)، ويصور هذه المقاصة تصويراً رمزياً حديث المفلس الذي صور المفلس يأتي بصلاة

وصيام وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحنا عليهم وهذا أكمل تصوير لمضمون المقاصة.

ويفرق الإسلام في هذه المقاصة بين نوعين من الخطأ نوع نسميه الضعف ونوع نسميه الشر، والضعف هو ما يعود إلى الضعف في الطبيعة البشرية وسمته الرئيسية أنه لا يضر أحداً غير صاحبه، أما الشر فقد لا يكون بالدرجة الأولى نتيجة للضعف وإنما يحدث لقوة الإغراء وضراوة الإغواء، وهو عادة لا يقف عند حد، وإنما يميل للاستشراء، وهولا يقع على صاحبه وإنما ينسحب على الآخرين فالسرقة شر، والقتل شر وسوء المعاملة شر.

والقسم الأول (الضعف) يكون ذاتي الطبيعة، والقسم الثاني (الشر) له طبيعة اجتماعية بمعنى أنه يقع على آخر، كما أن المقاصة لا تكون كافية في حالة الشر، إذ لا بد من إصلاح ما أفسد كإعادة المسروق أو التعويض عن الخسائر... الخ.

والإسلام رقيق مع القسم الأول (الضعف) ولكنه جاف مع القسم الثاني لأنه يسيء إلى الآخرين، ولهذا يستخدم الرحمة مع الأول ويستخدم العدل مع الثاني.

- ٢ -

في المقال السابق رأينا أن الإسلام وضع استراتيجية للتعامل مع الضعف البشري تقوم على المقاصة، أي مقابلة السيئات بالحسنات، وفرقنا بين الضعف والشر وأن الأول ينطبق على صاحبه بينما الثاني يؤثر على الغير.

وقلنا أن الإسلام رقيق مع الضعف، جاف مع الشر يستخدم الرحمة مع الأول ويطبق العدل على الثاني.

نريد الآن أن نوجه النظر إلى نقطة هامة - تلك - هي أن هذه الاستراتيجية الحيوية الإيجابية العملية تختلف تمام الاختلاف - إن لم تتعارض - مع الاستراتيجية التي وضعها الفقهاء للتعامل مع الضعف البشري والتي تقوم على " سد الذريعة " أي أنها تريد أن تحول بين الإنسان وبين الوقوع في الأخطاء والذنوب بإبعاده عن العوامل التي تؤدي إلى الخطأ والذنوب أو بوضعه في صوبة لا يمكن للآثام أن تدخلها، وفاتهم أن الضعف مغروس في النفس الإنسانية نفسها، وباب سد الذريعة باب متسع في الفقه الإسلامي، وبعضهم بناه على أن العبرة بالمآل وأنه يدخل في فقه المآل، بينما ركز آخرون على تحديد مدى المفسدة التي يجب سدها، ولما كان الاتجاه الفقهي بصفة عامة يأخذ بالأحوط ويتوقى عدم وجود ثغرات يسمح منها ظهور المفسدة، فإنهم توسعوا في استخدامها، وكان كل ما جاءوا به من مباحث طويلة قائمة على فقه يعالج التصرفات كما لو كانت أعمالاً ثابتة جامدة، يفصل فيها المنطق الصوري وأنهم تجاهلوا أصولاً في الشريعة لا يسمح بمثل هذا التزيد والتحوط، لأنه يخالف اعتبارات اعتمدها الشريعة، وما قضت به الطابع من أن التوسع في التحريم يؤدي إلى آثار عكسية، وأن طبيعة المعالجة تتناقض مع الطبيعة الحيوية الديناميكية التفاعلية للسلوك الإنساني وما ينتهي إليه.

والأساس الذي يقوم عليه مبدأ سد الذريعة هو أن كل وسيلة تؤدي إلى حرام يجب تحريمها ويذكرون في دعم مبدأ سد الذريعة الآية " وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ "، ولكن لما كانت دلالة الآية محدودة، فإن الاستخدام الأعظم جاء عن طريق حديث " المرأة عورة " فإذا كانت المرأة

عورة، فإن سد الذريعة دون الفتنة بهذه العورة هو حجزها في البيوت داخل أربعة جدران، وإذا خرجت لضرورة يجب أن تخرج كما لو كانت شبحاً، وينسحب هذا على كل المناشط التي يمكن أن تقوم بها، كما يلجأون إلى حديث الحرام بين والحلال بين وبينهما متشابهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام... الخ.

وليس من اليسير أن نطرح استشهاداً أقوى كأن يأتي النص القرآني محدداً لما حرم الله كما جاء في الآية "أَتَلُّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ"، فيكون سد الذريعة افتياتاً عليها، وكذلك حديث الرسول عن أن الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وبينهما عفو فأقبلوا من الله عافيته، ومنها التوجيه النبوي للمؤمنين "إذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" فهذه كلها ترى في سد الذريعة إفتياتاً على الشريعة.

وقد أثبتت التجارب أن المحاولات التي قامت بها بعض النظم الدينية الحاكمة مسيحية أو إسلامية لاستئصال الشر والفساد من منبعه والحيلولة دون ظهوره باءت بالفشل، وأنها حتى عندما تكتسب نجاحاً ظاهرياً وموقوتاً تدفع ثمناً باهظاً في وسائل وأساليب تتطلب القمع والتجسس وتؤدي إلى ظهور السوق السوداء، والتهريب، والتحايل وإفساد الضمائر والنفوس لأن هذا الأسلوب يجافي طبيعة المجتمع البشري، وما فيه من ضعف وشهوات وما أراد الله له من مجابهة بين الحق والباطل.. الخير والشر.. الإرادة والهوى.

وإنما سلك كثير من الدعاة الإسلاميين هذا المسلك لأنهم حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة ينظرون منها ويحكمون على الأشياء طبقاً لها، ولو انهم درسوا المجتمع الإنساني والنفوس البشرية دراسة موضوعية شاملة لأدركوا أن الحرمان المحرق لا يقل سوءاً عن الشهوة الجامحة، وأنه يذل النفوس ويوهنها ويوجد فيها ثغرات عديدة يمكن أن تؤتي منها.

وبالطبع فإن من يسلك هذا المسلك لا يمكن أن يفهم العمق الذي تضمنه فهم الإسلام للذنب وأن الوقوع في الذنب لا يخلو من آثار تصب في خاتمة المصلحة لا المفسدة وهو سر لا يمكن أن يدركه الفقهاء الجامدون والأعراب الجفاة، ولكن الإسلام الذي جاء من عند الله الذي يعلم بما في الإنسان وما توسوس به نفسه وأنه أقرب إليه من حبل الوريد يدرك أن الوقوع في الذنب قد يكون هو نفسه نوعاً من سد الذريعة بمعنى تكرار الذنب، كما أنه يحول من تسلل عاطفة الزهو بعدم الخطأ على غيره والزهو في حد ذاته من كبائر الذنوب، وأنه من الخير أن يذنب أحد مرة ثم يتوب ويندم على هذا الخطأ، أفضل من أن لا يخطئ أبداً، وتنازعه نفسه إلى ارتكاب الذنب مرة أخرى، وإن التوبة بحكم أنها ابتهاج صاحبها إلى الله تعالى ورغبته المخلصة في العفو والرضا أعمق أثراً في الصلاح.

ولهذا جاء الحديث (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم)، ومن يتعمق في فهم هذا الحديث يدرك الأبعاد بذنوب ويستغفر ويتوب وأنها أبعد مما يمكن أن يصل إليه من لم يذنب، فالتوبة المخلصة تدفع للعمل الصالح، والابتعاد عن الشر والإثم، ولا بد بالتالي أن يمارس، فهذا الحديث يؤدي إلى التطبيق العملي لمبدأ المقاصة رغم أن ظاهره قد لا يوحي بذلك.

حتى الآن لم نتحدث عن تفاعيل ومفردات استراتيجية المقاصة للتعامل مع الضعف البشري. وكقاعدة عامة فإن الإسلام يضع خطأ وسطاً يمثل سلوك المسلم النمطي، ويفترض أن يؤدي ما يوجبه، وأن يتجنب ما

ينهي عنه، فعليه أن يصلي الصلوات المفروضة الخمس وأن يؤدي الزكاة وأن يصوم رمضان وأن يحج مرة واحدة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعليه أن يتجنب ما أمر الله باجتنابه صراحة كالشرك أو عدم الإيمان بالرسول أو الكتب السماوية أو اليوم الآخر، وأن يتجنب المحرمات في المأكل والمشرب كشرب الخمر وأكل الخنزير والسلوك فلا يقرب السرقة أو الزنا أو الشهادة الزور وأن يكف يده عن كل صور الأذى للآخرين وأن يعامل الناس بخلق حسن.

المسلم الذي يلتزم بذلك دون أي زيادة فلا يكون عليه مأخذ ويكون كالأعرابي الذي عندما عرض الرسول عليه أركان الإسلام تعهد بأدائها دون أن يزيد عليها فقال الرسول " أفلح إن صدق "

فوق هذا الخط يوجد خط الفضل الذي يبيح لمن يشاء أن يزيد ما يشاء، سواء كان ذلك في القربات أو في أعمال الخير على تفصيل في الأولويات، فما ينفع الناس أفضل عما يقتصر نفعه على نفسه وحده، وينطبق عليهم جميعاً " استبقوا الخيرات "

وتحت خط القصد يمكن أن يحدث التقصير، وبالطبع فما من مسلم سيجد أصول العقيدة من إيمان بالله والرسول واليوم الآخر حتى وإن كان المسلم به أن الأغلبية قد لا تعلم تماماً أعماق وأبعاد هذا الإيمان.

ويمكن أن يحدث تقصير في العبادات (من صلاة أو صيام أو حج)، وطبقاً لمبدأ المقاصة، فإن عليه أن يأتي من الحسنات ما يتكافأ مع حجم التقصير، فإذا كان استسلام لشر فعلية التوبة وإصلاح ما أحدثه هذا الشر.

وقد كاد الفقهاء أن يوثقوا الصلاة ويعتبروا من يقصر فيها كافراً بقدر تقصيره، والصلاة على أهميتها قربة كبقية القربات، وقد يقدم القرآن عليها الأمر بالمعروف أو الجهاد... الخ، تبعاً لمناسبات معينة، كما وضع تيسيرات عديدة تصل إلى حد الجمع ما بين الظهر والعصر، وما بين المغرب والعشاء إذا تعسر عليه إقامة كل صلاة في وقتها، فقد رخص بذلك الرسول " لكي لا أشق على أمتي"، فإذا حدث تقصير فإن الحسنات تكفر عنه شأن الصلاة في هذا كشأن كل العبادات.

وإذا كان الذنب مقارفة الزنا أو شرب الخمر، فإن هذا أيضاً تسويه المقاصة ومن المسلم به أنه لا يوجد إثم أعظم من رحمة الله "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا"، وإن استتنت إحدى الآيات به والمفروض أن لا يقع من مسلم.

وتجدر الإشارة إلى أن الناس في معظم الحالات تفهم الله تعالى بالصورة التي في أذهانها عن الملوك والأباطرة، وتجري عملية "إسقاط" نفسية إنسانية على الله، ويجب أن نستبعد هذا تماماً وأن تكون الصورة التي في ذهننا عن الله هي التي عرضها القرآن بمقاييسه تختلف عن مقاييسنا وخرائنه لا تنفذ ويميل بعض الناس بحكم رواسب قديمة من تاريخ الأديان أو شذوذ في النفس أن يعلي جانب القسوة في حين أن الله هو الرحمة، وعندما أراد الرسول تقريب رحمة الله إلينا قال أنها تعادل مائة مرة رحمة الأم بوليدها، لهذا فإن الله تعالى يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها وعلى السيئة بسيئة واحدة، وقد يرتفع عدد العشرة فيصل إلى سبعمئة مرة.

كما يجب أن تذكر أن الله تعالى تجاوز عن كثير من السيئات كرمًا منه ولطفًا كما قال "أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ" (الأحقاف ١٦)، كما أنه قال: "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ"، فوضح أن اللمم لا يدخل في ما

يفترض أن يجتنبه المؤمنون، واللمم قد يكون صغار الذنوب وكما قد يكون مقاربة الذنوب الكبيرة دون أن يتوغل فهذا أيضاً يدخل في باب غفران الله ورحمته.

لا يهم الإسلام بوجه خاص أن يقترف المسلم ذنباً، ولكن يهمله أن تظل حاسة الإيمان مرهفة في نفسه، وأن هذه الحاسة مع اقترافه الخطأ تجعله في حالة استغفار وندم، ومثل هذه الحالة أثنى عند الإسلام من حالة الذي لا يخطئ ولا يحس بحاسة الاستغفار كما أشرنا من قبل، وقد جعل القرآن الكريم الاستغفار حصانة من عذاب الله، كوجود الرسول بين جنبي المسلمين فقال: " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"، وكما قلنا فإن هذه الأبعاد السيكولوجية هي مما لا يدركه الفقهاء الجفاة الذين لا يعنون إلا بظاهر النفس الإنسانية أما أعماقها فهذا مما لا يخطر لهم ببال.

وهناك أمران أخيران يجب أن نعلمهما:

**الأول:** أن باب المقاصة مفتوح حتى الغرغرة، أي حتى تفارق الروح صاحبها وقبل هذا يمكن أن يتوب فتمحي عنه كل سيئاته، بل لو اتسع له الأجل لعمل صالحاً، فإن سوءاته تلك مهما تعاضمت تتحول إلى حسنات "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا \* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (الفرقان: ٦٨-٧٠)، وعلى هذا فلا يمكن إصدار حكم قاطع على من ارتكب إثماً لأن من المحتمل أن يتوب فيمحي هذا المنكر، وقد تضيق معاييرنا عن تحمل هذا، فنقضي ونحكم فوراً بمجرد ارتكاب الإثم، وهو أمر مفهوم لأن مقاييسنا لا يمكن أن تتسع وتنفسح وتصبح كمقاييس الله.

**ثانياً:** إن الحساب سيكون على مجموع الحسنات ومجموع السيئات وغلبة أحدهما على الآخر، وليس على كل ذنب على حدة لأن ذلك يجافي المبدأ السابق والمحاسبة لا تحدث إلا يوم القيامة، وعلى مجموع عمل الفرد، فإن زادت الحسنات فإلى الجنة وإن زادت السيئات فالنار مصيره، ولكن الحساب لا يكون كحسابنا ولكن بحساب أن الحسنة بعشرة أمثالها أو حتى بسبعمئة ضعف والسيئة لا تحسب إلا واحدة، يضاف إلى هذا ما أشرنا إليه من تجاوز الله تعالى لكثير من الذنوب ولعدم احتساب اللمم.

أعتقد أن ميزانية تحسب الحسنة بعشر أضعافها وفي حالات بسبعمئة ضعف لا يمكن أن توقع ظلماً على أحد، بل يغلب أن يكون مصير الأغلبية الساحقة الجنة، وأن الإسلام أبعد ما يكون عن القسوة، كما يصور البعض أنه الرحمة التي فوق التصور البشري.

## عندما ثار الأسطول البريطاني

ترجمت هذا البحث عندما كان لدى سعة من الوقت أوائل الستينيات (من القرن الماضي)، لجرد الإعجاب به دون أن أقصد نشره. وبالفعل فإنه لم ينشر في صحيفة، ولكن نشر الجزء الأول منه في كتاب (نظرية العدل في الفكر الأوروبي والإسلامي)، ولم ينشر الجزء الأخير منه، والفكرة من نشره أنه مثل حي وواقعي يدل على أن الجماهير عندما تؤمن بحقها فإنها تستطيع أن تعمل لنيله حتى في أسوأ الظروف، ويمكن أن تنجح إذا رزقت القيادة القوية الأمين، كما يمكن أن تخسر - ولو جزئياً - ولكن دون أن يذهب كفاها هدرًا، أنه سيرزق التطبيق، ولكن في حقبة تالية، والغرض استثارة الهمم.

كان الأسطول البريطاني - وما زال - فخر بريطانيا، فقد وقف بالمرصاد لكل من تحدته نفسه بغزوها، فحال بينه وبين تحقيق ذلك، وفي الوقت نفسه توقلت بوارجه غوارب الأمواج، فنالت أقصى المسالك وأخضعتها للحكم البريطاني حتى تركزت في الأسطول قوة بريطانيا، الدفاعية والضاربة..

وأنه لمن أعجب الأمور أن نعلم أن الذين كانوا يعملون على ظهر الأسطول ويخوضون معاركه من البحارة أو المقاتلين، كانوا حتى القرن التاسع عشر يتعرضون لأنواع من الإذلال والاستغلال ويعيشون حياة من القسوة والخشونة إلى درجة لا تكاد تصدق! فقد كانوا يتعاطون أجورًا بخسه لا تزداد على مر السنين وتتأخر لسنوات (وصل في بعض الحالات إلى تسع سنين)، وكان هذا الأجر البخس القليل قسمة عادلة بين المستغلين من صراف السفن وتجار الموانئ وعاهراتها وأصحاب النزل وغيرهم من الذين يتلقفون البحارة عند وصولهم فيستغلون تعطشهم الشديد إلى حاجاتهم، أما عن الطعام فقد كان بالحيوان أنسب فقد كان الدقيق مسوسًا واللحم ننتًا صلبًا كالخشب والجبن غنيًا بالديدان الطويلة الحمراء، حتى المياه التي كانت تستمد من الأنهار وتخزن في براميل، لشهر أو لسنوات، أسنة لزجة ذات لون أخضر متغير.

وكانت المعاملة وحشية، فخلال مرحلة طويلة من التدهور الأخلاقي وإساءة فهم معاني " السلطة " و " العسكرية " و " الضبط والربط "، أصبح " الجلد " هو الأسلوب المألوف الذي يلجأ إليه أي ضابط مهما صغر في معاملة البحارة، وكان القانون يضع ضمانات عديدة لعدم إساءة استعمال هذه العقوبة، ولكنها كلها أهملت بحيث نسيت مع الزمن، وكان الجلد يؤدي بسوط ينتهي بتسعة ذيول ويسمونه " القطة "، ويصف كاتب أثر الجلد فيقول أن الضربة الأولى التي يضربها الجلاد بكل قوة ساعده تفلت فورًا " آه " عالية من فم المجلود حتى وإن كان من أشجع الرجال، وتمزق ست جلدات الجلد، بينما تحلله اثني عشر جلدة إلى ما يشبه الكعكة المتعفنة، وبعد ذلك تبدو العظام ويتفجر الدم من لسان وشفتي ومنخري وإذني المجلود، وكان السوط يغير كل بضعة عشرات من الجلدات، حتى لا تليين ذيوله، وفي كثير من الحالات كان الجلد معناه الموت أدبيًا، والموت ماديًا، وكان القانون يحدد الحد الأقصى على الظهر العاري باثني عشر، ولكن هذا - كما ذكرنا - كان نسيًا منسيًا، فكان العدد المألوف بضع عشرات بينما لم تكن مائة جلدة شيئًا مستغربًا، كما لم يكن الحكم بثلاثمائة نادرًا، وأعجب الأشياء أن البحارة لم يتذمروا لوجود هذا النظام الوحشي، وأن طلبهم أنصب على الحيلولة دون استخدام الضباط له دون أي قاعدة، فقد كان بوسع أي ضابط أن يوقعه على البحارة، وكان الضابط النمل أو القاسي أو السادي يستطيع أن يحقق نزواته مهما كانت شاذة دون أن يمتنع عليه هؤلاء البحارة الأقوياء الأشداء.

وأخيراً فإن هؤلاء البحارة الذين كانوا يقاومون الأمواج ويجابهون الرياح ويسيرون سفنهم الخشبية الشراعية شهوراً أو سنين عبر البحار، لا يرون إلا السماء لم يكونوا يمنحون إجازات منتظمة أو شبه منتظمة، ولم يكن لهم أي تأمين في مجابهة الحوادث، ونادراً ما كان يسمح لهم بالنزول على الشاطئ، إذ ظهر أن الذين ينزلون إلى الشاطئ قلما يعودون.

ليس من العجيب، والأمر كذلك، أن تظهر الفتنة على ظهر بعض قطع الأسطول مثل تمرد السفينة بوتني سنة ١٧٨٩م، وتمرد السفينة كلدورن وندسور كامسل سنة ١٧٩٤م، ولكن العجيب أن لا يتواتر ذلك على كل السفن.

والحق أن النذر كانت تؤذن بقرب ذلك، ففي سنة ١٧٩٥م قدم أحد المختصين إلى اللورد سبنسر - اللورد الأول للإمبرالية، كما يقول البريطانيون، أو باختصار - وزير البحرية تقريراً يذكر فيه أن حدوث فتنة عامة في الأسطول أمر لا يستبعد.

وحدث وقتئذ أن ضاعفت الحرب التي نشبت بين إنجلترا وفرنسا من حاجة الأسطول إلى الرجال، وكانت العادة المألوفة في الحصول عليهم هي " فرقة الكبسة Press ganged، وهي مجموعة من الجنود كانت تمر على الشوارع، والحانات وتنزع قسراً الشبان الصالحين، وما داموا من عامة الشعب فإنهم لا يجدون حماية من أي نوع ضد هذا النوع من الاسترقاق، ولكن هذه الطريقة لم تكف، فصدر في مارس سنة ١٧٩٥م قانون يقضي على كل ناحية بتقديم عدد من الشبان يتناسب مع عدد أهلها، وفي إبريل صدر قانون آخر يقضي على كل ميناء بتقديم " كوتا " من الرجال، وقد كان من بين هؤلاء عدد من المثقفين أو المتعلمين أو متوسطي الحال ولم يكن ليعقل أن يتحمل هؤلاء الحياة الخشنة، والمعاملة الوحشية بإذعان واستسلام، وأغلب الظن أن هذه العناصر، إن لم تكن هي التي قادت الحركة، فإنها على الأقل هي التي أشاعت جو التذمر بحيث سهلت حدوث التمرد عن ذي قبل، وقد كان من خصائص التمرد الذي حدث أولاً، في قاعدة سبتهد أنه لم يظهر قائداً بالذات، وإنما بدأ كما لو كان الأسطول يتكلم كله بلسان وحده.

وقد بدأت الحركة متواضعة، وفي ظل الطرق المشروعة، فبعد أن انفض دور التنظيم السري الذي لا نعلم عنه الكثير حتى الآن، والذي كان لا بد على جانب كبير من الإلتقان والحكمة.. اتفق الرجال على إرسال شكاوى إلى بطل الأسطول البريطاني وقتئذ وهو لورد هاو الذي كان قد هزم الأسطول الفرنسي في يونيو سنة ١٧٩٤م أو " ديك الأسود " كما كانوا يسمونه فأرسلوا العريضة الأولى إليه في ٢٨ فبراير سنة ١٧٩٧م، وحصروها في زيادة الأجور، وكانت العريضة استرحاماً غاية في الأدب والخضوع، ولكنها وجهت باسم "بحارة السفينة" الملكة "شارلوت" وإخوانهم في الأسطول بقاعدة سبتهد، وكتبت العريضة من عدة صور وأرسلت كلها إلى لندن.

وفي الثالث من مارس وصلت العرائض إلى لندن، ولكن لورد هاو الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً كان يستشفي في " بات " فأرسلت إليه، ولم يكن اللورد مهياً في ملاذ البعيد لاستقبال مثل هذه الشكاوى، ولا سيما إذا صدرت بشكل شبه جماعي، وحملت اسم السفينة التي كانت مقر قيادته، ومع ذلك فقد سأل لورد هيو سيمور وهو أحد لوردات الأميرالية عما إذا كان هناك تذمر، فأجاب هذا بأنه لم يسمع عن شيء من ذلك، فأرتاح اللورد بالأى، ولكنه حتى يتخلص من العرائض نفسها، فإنه عندما عاد إلى لندن في ٢٢ مارس سلمها إلى سيمور الذي عرضها على سبنسر، ورأى سبنسر أن الحل الوحيد هو أن لا يقول شيئاً ولا يعمل شيئاً، ويتوقع أن شيئاً ما لن يحدث.

وحز في نفوس البحارة أن لا يرد عليهم بظلم المحبوب، فأرسلوا مجموعة أخرى من العرائض إلى البرلمان، وفي الوقت نفسه مضت أعمال التنظيم قدما، وفي الوقت الذي كان أميرال الأسطول سبيته لورد بريد بورت يمضي أجازته، كانت الاتصالات تجري بين البحارة على قدم وساق، فلم تكد السفينة "دفنس"، ترسل عريضتها، حتى جاءت التهنئة مصحوبة بالتعليمات من السفينة "رويال سوفرن".

".. إننا نمنى أنفسنا بنوال مطالبنا، لأنه من الخير لهم أن يحاربوا العالم بأسره، من أن يحاربوا رعاياهم أنفسهم، وستصدر "الملكة شارلوت" إشارة بتقلد زمام السفن، وستكون هي رفع العلم مع إطلاق طلقتي مدفع، وستتلو هذه الإشارة الأولى إشارة ثانية هي رفع علم أحمر مع إطلاق طلقتي مدفع، وهذه لكي ترسلوا إلينا متحدثا باسم كل سفينة".

وحت ما جعل المتآمرين يعجلون بتنفيذ خطتهم، فقد تنسم أحد الضباط ما يحدث، وأسرع بإبلاغ أميرال الميناء سير بيتر باركد بورت الذي أرسل فوراً إشارة إلى سبنسر عما حدث في طلب البحارة زيادة الجور "لأنني علمت أمس أن تكتلات غير مشروعة قد حدثت على ظهر سفن أسطول القتال"، وكما يجب أن تتوقع، فإن سبنسر كان أقل تقديراً واهتماماً وأرسل في حماية الكلمتين السحريتين "خاص وسري" يخبره أن لورد هاو كان قد حول إلى لورد هيوسيمور، أحد عشر خطاباً من بحارة السفن، والخطابات كلها يبدو تدبيح من تدبيح شخص واحد، وإن كانت قد كتبت بأيدي مختلفة، ولم يهتم هاو بعد ذلك، ولما كان يبدو مستحيلا عمل شيء.. الخ".

وكان لورد بريد بورت - قائد الأسطول - أكثر الجميع تقديراً لخطورة الحالة وكتب إلى لوردات البحرية يأسى لتطور الأحوال ولعدم الرد" الذي كان في رأبي المتواضع كفيلاً بالحيلولة دون تدمير الرجال "وبدلاً من أن ترد الأميرالية رداً مقتعاً جاءه ردها، يأمر الأسطول بالإبحار.

وقلب هذا الأمر الفجائي خطة المتآمرين، وكان رد الفعل التلقائي ووحى اللحظة الجماعي هو العصيان ! وعدم إطاعة الأوامر الخاصة بالإعداد للرحيل، وأسرعت سفينة القيادة "الملكة شارلوت" فأنزلت قارباً مر على السفن، وأمرها بأن ترسل مندوبين عن كل سفينة منها إليها، وحاول قبطان إحدى السفن المقاومة، ولكن بريد بورت، وقد برح الخفاء، وتوقع سفك الدماء ثناه، وكتب إلى الأميرالية يخبرها أن فكرة العمل بشدة والقبض على الزعماء خطة حمقاء، وأن من الخير قبول توسلات البحارة الموضحة في عرائضهم، والرد ولو جزئياً، ولكن هؤلاء المكتبيين في لندن لم يفهموا ذلك. وكتبوا إلى الأميرال بأن يبلغ البحارة بأن عرائضهم قد حولت إلى المختصين، وأنها ستكون محل العناية التي تستحقها.

وفي المساء اجتمع مندوبان من كل سفينة من كل سفينة من سفن الأسطول في غرفة الأميرال هو بالسفينة "الملكة شارلوت" وبرز من بينهم "فالتنتين جويس" أحد مندوبي السفينة "رويال جورج" والذي كان يبلغ السادسة والعشرين وايفانز الذي كان محامياً من قبل، على أن المندوبين كانوا جميعاً عدولا وأكفاء وخليطاً من الشباب والشيوخ من الرؤساء أو البحارة، وتميزوا بحسن التقدير، وفهم الأمور، وثقة زملائهم فيهم وقد كان هذا هو السبب في أنهم لم يسيئوا استخدام سلطتهم الجديدة أو يتورطوا في فعل من أفعال الطيش أو السرف، وعقدوا مجلساً يعمل لحفظ النظام، وقصر الحركة على تحقيق المطالب، وأصدر مجموعة من التعليمات كلها تحض على النظام والطاعة واحترام الضباط وقيد إرسال الخطابات إلى الخارج أو الانتقال من سفينة إلى أخرى، كما حرم على كل سفينة التحرك قبل إجابة المطالب، وإذا حدث على ظهر إحدى السفن شغب فعلى المسؤول عنها رفع العلم الأحمر، وإذا حدث ذلك ليلاً فيعلق مصباحان أحدهما فوق الثاني وعندئذ يهرع إليها فوراً قارب المندوبين، وعندما أساء بعض البحارة السلوك عوقبوا العقاب المألوف: الجلد بل أن بعض السفن المترددة هددت بأنها ستضرب بالمدافع ما لم تسلك المسلك الجماعي الواحد.

ومع أن قيادة الأسطول أصبحت عمليا في يد المندوبين، إلا أن روتين العمل اليومي أخذ يسير كالعادة تحت رئاسة الضباط في انتظار رد الأميرالية، وخطوتها الثانية.

وبدأت الأميرالية تتحرك - فانتقل سبنسر ومعه بضعة من لوردات الأميرالية إلى بورتسوت. وهناك استدعوا بريد بورت واستمعوا إليه، ولكنهم حتى في هذا الوقت لم يقتنعوا بعدالة مطالب الرجال، أو لم يروا لهذا السبب أو ذلك إجابتهم، وأوفدوا ثلاثة من أمراء البحر المندوبين يحملون رداً مبهماً كان الشيء الوحيد الواضح فيه محاولة التفرقة بين فئاتهم، واستمع إليهم المندوبين وأخبروهم أنهم سيرسلون الرد في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثاني.

واستغرق إعداد الرد من الصباح حتى العصر وأرسل في الساعة الرابعة من يوم ١٩ إلى زعماء الأميرالية الذين كانوا ينتظرون على مضض، وكان عبارة عن رد قوى تضمن احتجاجا على التفرقة، وإن مطالبهم الحقيقية توجهت فيما يتعلق بالأجر فأنهم يطلبون للبحار العادي شلنا في اليوم، وزيادة المعاش من ٧ جنيهات في السنة إلى عشرة وتحسين الطعام وإباحة الاجازات المعقولة، وختم الرد بأنه ما لم تجلب هذه المطالب ويصدر قانون بالعمو عن كل رجال الأسطول، فإنهم لن يحركوا مرساة، كما جاء في الرد أنهم اتفقوا على أن يوقفوا مطالبهم من هذا الحد ليدلوا على حسن نواياهم ويشهدوا الشعب على أنهم لا يريدون سوى العدالة.

وأراد الضباط أن يبطشوا بالمتمردين وأن يسعوا للتفريق بينهم، ولكن تضامن البحارة حال دون ذلك فلم يبق أمام الكبار إلا التسليم، فأجيب الطلب الرئيسي الخاص بزيادة الأجور، ولكنهم تجاهلوا المطالب الخاصة بتحسين الغذاء والإجازات والانتصاف من مظالم بعض السفن بالذات، ورد عليها رداً مبهماً. وكان يجب نظير ذلك أن يعودوا إلى العمل فوراً، وأن يسامحوا وإلا عرضوا أنفسهم لأشد العقوبات.

وكان هذا إلى حد ما انتصاراً، ورحب به البحارة، ولكنهم تريثوا، بينما كان المندوبون في "الملكة شارلوت" يعكفون على دراسة الرد بدقة وعناية، وقد تسلل إلى نفوسهم الشك فجعلهم يفسرون الأمر تفسيراً خاصاً، فلماذا تؤكد الأميرالية عفوها، وما الذي يجعلهم يثقون في كلمتها، وقد كان لها سوابق في نقض العهود مع بحارة السفينة "كالدون"، وفي النهاية رأوا أن وعد الأميرالية لا يكفي، وأن من الضروري أن يصدر العفو من الملك نفسه، كما أيضاً أن توافق الأميرالية على بقية المطالب، وأن يصدر قانون من البرلمان بذلك وأصدر المندوبون "تحذيراً" إلى الأسطول أوضحوا فيه هذا كله حتى يجعلوهم على بينه.

وعاد لوردات الأميرالية إلى لندن، واجتمع مجلس الوزراء على عجل برئاسة بيت، وأرسل قراراً إلى الملك الذي أعاده بعد أن ختمه وأسرع مندوب الأميرالية فطبع مائة نسخة، من العفو وأرسلها لتوزيع على البحارة في صباح اليوم التالي (٢٣ إبريل).

وكان في هذا ما يكفي لتطمين البحارة، ولكن للشك جذوراً ليس من السهل اقتلاعها، وقد رأى المندوبون أن من الأسلم أن يرو "الأصل" بأعينهم، وأن يلمسوا الختم الملكي بأيديهم، وأن يدرسوا الأمر بأسره دراسة وافيه.

واستحث الضباط الأميرالية إرسال القرار الأصلي وطلبت الأميرالية ذلك، ولكن "المجلس الخاص" كان في عالم آخر، وكان لا بد للروتين أن يسلك مجراه طوال أسبوعين كانا كافين لتسلل الشك مرة أخرى إلى نفوس البحارة الذين اعتقدوا أنه لم يكن هناك إجراء دستوري سليم، وأن الأمر بأسره لم يكن إلا حيلة انكشفت عندما طولبت الأميرالية بإبراز "أصل" العفو الملكي والقانون البرلماني.

وفي الوقت نفسه كانت أنباء قد انتقلت إلى بقية قواعد الأسطول فأضرب بحارة الأسطول في بليموث وأرسلوا مندوبين إلى قاعدة سبتهيد بينما استطاع الأميرال دنكان قائد أسطول الشمال أن يكبح جماح بحارته بصعوبة بالغة، وزاد الأمر سوء كتابات الصحف المتضاربة وأكدت المعارضة في مجلس اللوردات شكوك البحارة السانجيين، وأخير فإن الأميرالية اختارت هذا الوقت المتوتر الحافل بالشائعات لترسل إلى الضباط أمرا سريا غامضا يدور حول ضرورة التأكد من سلامة الأسلحة والذخائر، ونتيجة هذا الأمر المشؤم سفك أول دم في الحركة كلها إذ حاول أحد بحارة السفينة " لندن " تغيير اتجاه أحد المدافع، فأمره أحد الضباط بالابتعاد، فرفض فهدده بإطلاق النار، ولكن البحار لم يكتثر، فأطلق عليه الضابط رصاصة وأردته قتيلًا، وعندئذ صاح البحارة "الدم بالدم"، وتبدلت الطلقات، وتجمهر البحارة حول الضابط واقتادوه ليشنقوه ! ولكن مندوب السفينة استخلصه من أيديهم بعد عناء شديد، كما كان قائد السفينة حسن التصرف فأمر كل الضباط بعدم المقاومة، وبهذه الطريقة أمكن تجنب سفك المزيد من الدماء، وقرر البحارة بعد هذه الحادثة إنزال كل الضباط إلى البر فأرسلوا إلى كل منهم خطابًا جاء فيه أن رغبة الأسطول هي أن يغادر السفينة في الثامنة بسلام، ولما تم ذلك اتجهوا بالأسطول إلى قاعدة " سانت هيلانة " حتى يوحدوا قواعدهم مع الأسطول الراسي هناك ويحولوا دون استغلاله في مقاتلتهم، وقيل أن البحارة سيحاكمون "الأميرال كولبوي" والضابط بوفر الذي أطلق الرصاص أمام مجلس عسكري، وتناقلت الصحف شائعات عديدة عن ذلك كانت كلها غير صحيحة.

وأخيرًا صدق البرلمان على قانون البحارة، وقرر اعتماد ٣٧٢,٠٠٠ جنيهًا لزيادة الأجور وهو مبلغ لم يكن كبيرًا بالنسبة إلى ميزانية وزارة الحربية، التي كانت تبلغ اثني عشر مليونًا ونصف، وأرسلت نسخ من القانون إلى السفن، ولكن الأمواج كانت عالية بحيث لم يتمكن إيصالها إلا لسفينة واحدة، كانت هي لحسن الحظ، أشد السفن تمردًا السفينة " لندن ".

وجاء ختام الحركة عندنا قررت الاميرالية إيفاد الأميرال هاو بطل الأسطول القديم الذي ابتهل إليه البحارة في أول الأمر بكل خضوع ولم يقدر وقتئذ حقيقة الموقف، فأبحر فورًا إلى سانت هيلانة، وهناك قابل البحارة في كل سفينة علي حده مقابلة رجل لرجال، وتسليح بصير لا حد له في إقناع البحارة، واقتنع الرجال بجدية قرارات الأميرالية والبرلمان، ولكن بقيت الشكاوي الفردية التي تمسك بها الرجال كالصخرة ورفضوا أن يقادوا بعد الآن برجال هم وحوش في شكل ضباط، وعرض هاو محاكمة هؤلاء الضباط، ولكن البحارة رفضوا لأنهم يعلمون أن الذين سيحاكمونهم ضباط مثلهم وتمسكوا بضرورة أقاتلتهم من الخدمة نهائيًا، وخضع الأميرال هاو، وتعرض في سبيل ذلك لثورة الأميرالية التي رأت أنه إذا كان عليها أن تخضع لتحكم البحارة وشروطهم فسلام على كل نظام وقانون، ولكن هاو كان مفوضًا فوق العادة بسلطات استثنائية وعلى هذا رفت من الخدمة ٥٩ ضابطًا منهم واحد برتبة أميرال وأربعة برتبة كابتن، كما رفت ٦٥ ضابطًا من ضباط أسطول سبتهيد.

وبذلك انتهى الأمر وسوى كل شيء، وفي ٥١ مايو عقد احتفال كبير ضم المندوبين وكبار الأميرالية والسلطات، وأنزل العلم الحمر "علم التحدي" ورفع "علم الملك"، وأظهر كل البحارة عن إخلاصهم وولائهم للأميرال هاو الذي يعود إلى حكمته وإنسانيته هذا السلام.

وفي ١٧ مايو أقلع الأسطول.

\* \* \*

في الوقت الذي كانت نيران فتنة سبتهيد تخمد بالانتصار، كانت نيران فتنة جديدة تشب في الأسطول الراسي بقاعدة نور، وفي هذه القاعدة كان من العسير الوصول إلى تنظيم دقيق لأن الأسطول هناك، باستثناء ثلاث من البوارج - من المدمرات والسفن الصغيرة التي تقوم بأعباء الحراسة والتنقلات ومن هنا كان توحيد الكلمة عسيرا بعض الشيء، ولكن البحارة استطاعوا بهذه الطريقة أو تلك أن يحققوا تنظيمًا ما وانتهزوا فرصة انشغال معظم الضباط في محكمة عسكرية كانت تقوم بمحاكمة أحد كبار الضباط أعلنوا في ١٢ مايو تمردهم وكانت السفينة الأولى التي بدأت التمرد هي السفينة العتيقة ساندوتش التي صنعت سنة ١٧٥٩م ووصل بها البلى إلى غايته فضلا عن إنها كانت مكتظة بـ ٢٣٠٠ رغم أن العدد الأقصى لها كان ٧٥٠ - وكان أميرالها - الأميرال بكنر Buckner - وقاندها الكابتن موس غائبين في المحاكمة، فأمر البحارة الملازم أول جسنر بمغادرة السفينة ففعل، وأرسلوا قاربًا إلى السفن الأخرى تأمرها بأن تبعد ضباطها المشاغبين وترسل مندوبين عن كل سفينة، وسرعان ما التتم شمل المندوبين واجتمعوا في قمرة القيادة بالسفينة ساندوتش وأعلنوا أنهم المسئولون عن الأسطول.

وأضى المندوبون يوم ١٣ في تنظيم أمورهم. وفي ١٦ أصدروا منشورا يحتم ضرورة ملاحظة الضبط والربط، وكان يجب على كل سفينة أن تنتخب مجلس إدارة لها من ١٢ يعمل أحدهم كابتن ويرأس الأسطول كله اللجنة العامة للتنظيمات الداخلية التي تجتمع كل صباح على ظهر الباخرة " ديركتور " كل صباح.

وبعد كل هذه التنظيمات الداخلية لم تصدر اللجنة مطالب أو عرائض توضح للبحارة أبعاد القضية العامة أو عرض الحركة وهدفها واهتمت اللجنة بالتحقق من ولاء كل بحار وحمله على القسم قسا رهيبًا ويبدوا أن ثوار نور اعتبروا أنفسهم تبعًا لثوار سبتهيد وأنه من هناك ستصدر الأوامر الخاصة بالقضية العامة والسياسة العليا، ولذلك أرسلوا في ١٤ مايو بعض المندوبين إلى بورسموث - ولكنهم بدلا من أن يتلقوا الأمر بالمضي في التمرد وجدوا الاحتفالات قائمة على قدم وساق، فرجع اثنان منهم في ١٩ مايو، ومعهم الأخبار التي نزلت عليهم كالصاعقة أن كل شيء قد أنتهي فغيم أن الثورة في نور وماذا يفعلون، وهل يعودون إلى العمل ويبتهلون إلى الملك في طلب العفو؟

كانت تلك هي المشكلة الأولى التي جابهت المندوبين وريتشارد باركر الذي انتخب رئيسًا، وكان باركر هذا ضابطًا صغيرًا سابقًا أنزل عن رتبته لبعض المخالفات، وكان أكثر ثقافة وإماما بالعالم الخارجي من معظم البحارة، ولكنه لم يرزق العمق وقوة الإرادة، ولو رزقها لوجد الشجاعة ليعترف بأن الحركة في نور قامت من الأول على أساس فكرة خاطئة هي أن حركة سبتهيد لا تزال قائمة، وإن السلطات لما تسلم بالمطالب، أما وقد سلمت فلا حرج إذا عادوا.

على أننا لا نستطيع أن نلوم باركر وقد كان من ناحية مدفوعا بثورة البحارة من ناحية أخرى فإن انتصار سبيهند وإن كان قد حقق كثيرًا، أو معظم مطالب البحارة، إلا أنه أيضا اغفل بعضها. كما كان من المشكوك فيه أن يسرى عفو الملك عليهم، وعلى هذا فقد أخذوا ينزلوا الضباط المكروهين وعندما حضر أميرال الأسطول "بكنر" وحاول التفاهم معهم سلموه عريضة بمطالبهم التي كانت تتضمن منحهم الإجازات وهو طلب عادل قد ورد بمطالب سبيهند، ولكن الأميرالية تخلصت منه، في حين كان بعض البحارة يمضي اثني عشر سنة على السفينة بحيث يمكن أن يعد بحق " مسجونًا بحريا " ومقطوعًا من أسرته وأصدقائه وكانت الترتيبات توضع، عندما تصل السفن إلى بعض الموانئ، لا لتسهيل نزول البحارة إلى البر، ولكن لنقيض ذلك أي الحيلولة دون نزولهم من السفن، كما كان من المطالب دفع الأجور المتأخرة، وأبعاد الضباط

المكروهين من سفن الأسطول قاطبة، وملاحظة العدالة في توزيع المكافآت النقدية<sup>(١)</sup>، وأن يعلن عفو عن الثائرين.

وختمت العريضة بأنها كتبت على ظهر السفينة ساندوتش بمعرفة مندوبي الأسطول في ٢٠ مايو سنة ١٧٩٧ ووقع عليها ريتشارد باركر باعتباره الرئيس.

وصدم لوردات الأيرالية عندما قرأوا الرد، ورموا البحارة بالعقوق ونكران الجميل وكتبوا إلى بكر، بأن يرفض كل المطالب الجديدة، وعقدوا العزم هذه المرة على كبت الحركة والوقوف موقفا صلبا فأرسلت فصائل من الجنود إلى الميناء، ولكن مشاه الأسطول عقدوا معهم الصلات، وألف المندوبون أن يخرجوا في كوكب مهيب يحيط بهم حرس يحمل شارات كتب عليها "التوفيق لمندوبي الأسطول" حيث يعقدوا مؤتمراتهم في إحدى الحانات أو الأماكن العامة.

وحدث وقتئذ أن أثقل بعض البحارة في الشراب فقبضت عليهم السلطات المدنية وأخطر الأيرال بكر الذي كان منذ الحركة مقيما في الميناء، فأمر بحجزهم ولكن لجنة المندوبين أصرت على تسلمهم ومحاكمتهم بمعرفتها، لأنها المسئولة عن الأسطول وأخذ البحارة يوفدون الرسل لإقناع بقية السفن في التيمس وتعرضت قواربهم لطلقات مدافع الموانئ.

وأثار هذا كله ذعر الرأي العام - وانطلقت إشاعات الفتنة في كل مكان، واستحث ذلك الوزارة على عمل شيء حاسم، ففي مساء ٢٧ اجتمع الوزراء وقرر استصدار عفو ملكي خاص بالذين اشتركوا في هذه الفتنة الجديدة، وأن يذهب وفد من الأيرالية لمفاوضة المندوبين.

وكان وزير البحرية سبنسر كارها أشد الكراهية لهذا القرار الأخير معتقدا أن فيه إذلالا للوردات البحرية، ولكنه لم يستطع إلا تنفيذ قرار الوزارة، ولهذا مضى هو ولورد آرون والأيرال بينج فوصلوا إلى شيرنس في صباح ٢٨ واتخذوا مقرا مختارا هناك واستقدموا بكر وتحدثوا إليه وعلموا منه أن الأسطول غير موحد الكلمة وأن بعض السفه الكبار راغبة عن الاشتراك، فزاد ذلك من صلابتهم وهكذا فعندما زار وفد من المندوبين المقر المختار لوفد الأيرالية قوبل بالتجاهل وحرموا رؤيته وأرسل إليهم أحد الأعوان ليسأل عن سبب المقابلة وأخذ الرسل يذهبون ويجيئون بين وفد المندوبين وسبنسر المتعالي الذي تقمصته روح "تاجر رقيق" وأخيرا قيل للوفد أن يكتبوا مطالبهم فلما كتبوها، أعلنوا برفضها وأن الأيرالية لا تقبل سوى الخضوع التام، وفي لقاء ذلك سيمنحون باستثناء بعض الأفراد عفو الملك، بل وحددت الأيرالية الوقت الذي يجب أن يعلنوا فيه خضوعهم بأنه ظهر اليوم الثاني وكان ذلك لا شك حماقة وتعاليا من سبنسر، يظهر ذلك جليا بمقارنته بسلوك الأيرال هاو وجهود الشخصية المتواصلة في تسكين الفتنة بما في ذلك الصعود إلى كل سفينة وإقناع بحارتها، والسبب أن الأيرال هاو، كان على كل سوءاته مقاتلاً، عمل مع هؤلاء الرجال، بينما كان سبنسر وزيراً، مثقفاً مكتيباً مثقلاً بأوزار الروتين وتقاليد السقيمة.

ومر اليوم الموعود دون أن يعلن البحارة استسلامهم فسافر وزير البحرية، وصحبة وتقطن الموقف، فأخذ البحارة من ناحية يشددون قبضتهم على السفن التي أظهرت ضعفاً كما أخذت الحكومة تدرس إمكانيات القضاء على المتمردين بالقوة، ولكن ظهر لها أن بطاريات الشاطئ عتيقة ومتهدمة لدرجة كادت أن تهدم عندما أطلق الأسطول قذائفه التقليدية في عيد ميلاد الملك، إذ أن البحارة لم يكونوا قط ثائرين على بلادهم، وإن كانوا ثائرين على الأوضاع السيئة والظلم الحائق بهم.

(١) لاحظ مؤلف "الجمهورية العائمة" في هذا الصدد أن الأيرال القائد للأسطول في ناغارينو (التي حدثت بعد ذلك بثلاثين عاماً) نال من المكافأة النقدية ٧٨٠٠ جنيهاً بينما البحار ١٨ شلن.

وعلق الطرفان أهمية كبرى على أسطول بحر الشمال الراسي في بارموث ومسلكه وبذل الطرفان جهوداً عنيفة، فقد كانت الأميرالية تأمل أن تخضع به الثوار، كما كان الثوار يعتمدون عليه في رفع الروح المعنوية، وتعويض بعض السفن التي لأذت بالفرار والأمن من ناحية القتال معه، وكان على رأس الأسطول الأميرال دنكان وهو قائد بارع محنك، ولكنه لم يستطيع مع ذلك كبح جناح معظم السفن التي لم تلبث واحدة بعد أخرى أن رفعت علم التحدي الأحمر، وعندما أراد الإقلاع لمقابلة الأسطول الهولندي لم يطعه سوى سفينتين من السفن الكبرى - سفن خط القتال - بينما تقاعست معظم السفن، وفي أول يونيو اتجهت كل سفن أسطول الشمال - باستثناء أربعة - تبعها فيما بعد - إلى قاعدة نور، وجنت الحكومة لذلك وقررت منع الإمدادات والتمرين عن الأسطول وأوقع ذلك الأسطول في مأزق وأجبر المتمردين على أن يلجأوا إلى فرض الحصار على ميناء لندن وإيقاف كل السفن التي تحاول دخول نهر التيمس وتفتيشها ثم أخذ التموين اللازم منها.

على أن المأزق الحقيقي، المأزق الذي أودى بالحركة، نتج عن عجز البحارة عن التصرف، فقد وضعهم تجاهل الحكومة وموقفها السلبي في حالة حرجه، ففي نور كان الأسطول العظيم، فخر بريطانيا ومحل حسد كل الدول - يلقي مراسيه - دون أن يهتدي زعماء الحركة إلى التصرف السليم.

وكان في قلب زعماء الحركة عشرات الأفكار دون الاهتمام إلى حل ملائم، فلم يخطر في بالهم بالطبع الانضمام إلى الفرنسيين أو الهولنديين الذين كانوا في حالة حرب مع بلادهم، ولكن بعضهم فكر في الذهاب إلى أمريكا، أو غيرها من الجزر العذراء أو المهجورة، وإقامة مستعمرات سعيدة، تخلوا من تحكيمات العالم القديم، ولكن هذا لم يكن ميسراً، فقد كانوا بحاره يستطيعون العمل على السفن أو مقاتلة الأعداء، ولكنهم لم يكونوا رجال حكم أو إدارة أو زراعة.

وهكذا حدثت تلك المفارقة الضخمة، ففي الوقت الذي كان نابليون يتحرق لأن يكون لديه بعض سفن هذا الأسطول العتيق، ليفتح بها العالم، كان زعماء الحركة يجلسون في نور لا يدرون ما يفعلون بقوتهم العظيمة، وفي الوقت نفسه كانت الحكومة تزيد بين آونة وأخرى من ضغطها الأدبي على نفوس البحارة. ففي أول يونيو قدم بيت مشروع قانون للحيلولة دون التمرد ومعاينة المتمردين في البحر بالحبس وعند المناقشة رفعت العقوبات بحيث أصبحت الإعدام. ووفق على القانون دون معارضة واحد في مجلس العموم وأرسل إلى مجلس اللوردات حيث أجاز في المساء نفسه وأريد لهذا القانون أن يستمر شهراً، ولكنه ضمن ولاء القوات حتى سنة ١٩٣٤ ! وتلا ذلك القانون قانون آخر يحرم الاتصال بالمتمردين ويجعل عقوبة ذلك الإعدام، وقد عارض هذا القانون سير فرانسيس بردت Sir Francis Burdett وأعلن أن هذا سيدفع البحارة إلى اليأس، وأن قوتهم في الحقيقة إنما هي ضد الإدارة الفاسدة الظالمة، وأيده في ذلك شارلس ستيرت Charles Sturt نائب بريد بوت الذي كان الوحيد الذي أعطى صوته ضد القانون، وكان القانون الثالث هو ذلك القانون المشؤم، قانون تحريم كل يمين غير قانوني والعقاب عليه، وهو ذلك القانون حوربت به النقابات العمالية طويلاً بعد ذلك.

وأعلنت الطبقة الوسطى بتجارها وموظفيها وشركاتها ولاءها للتام للحكومة: فتطوع عدد كبير منهم على ظهر السفن التي لم تشترك في التمرد وقدمت سفن خاصة عديدة ووضعت شركة النهر أسطولها تحت تصرف الحكومة، وأعلن التجار مكافأة قدرها مائة جنيه لكل من يدين الذين أثاروا هذه الفتنة.

وحاول البحارة عبناً إفهام السلطات حقيقية موقفهم وعادوا إلى إرسال العرائض مع بعض الضباط الذين أوفدوهم لذلك خاصة، كما أرسلوا عريضة مع ضابط كبير إلى الملك غير دارين أن الملك نفسه كان قد كتب إلى سبنسر "أن الحيلولة بينهم وبين الماء العذب سيجبرهم قريباً على الخضوع".

وأعطت الحكومة كل هذه العرائض آذاناً صماء وتركت الزمن يفعل فعله في نفوس البحارة التعساء الذين أخذت - معنوياتهم شيئاً فشيئاً - تضعف وهم لا يجدون مخلصاً من المأزق الذي وقعوا فيه، وعندما قر رأي باركر على الإقلاع إلى تكسل " Texel " في ٩ يونيو وأعطت السفينة ساندوتش ذلك وهي إرخاء القلاع وإطلاق طلقة مدفع ردت السفن كلها الطلقات ولكن دون أن تحرك ساكناً للإقلاع وظهر جلياً العجز والاختلاف - وكان ذلك في الحقيقة بداية النهاية.

وتنسم الضباط الذين كانوا تحت الحراسة في السفن هذا التغير وانتهز أحدهم للفتنات روب الذي كان على ظهر السفينة ليومارد فرصة غياب المندوبين فجمع الضباط وصف الضباط، وفاجأ البحارة وأمرهم بتغيير اتجاه المدافع، والإقلاع وأحست السفن بذلك فحذت حذوها السفينة ريبلس Repules، بينما حاولت سفن الأسطول إطلاق النار على السفينتين الغادرتين، ولكن يبدو أنها لم تحسن أو لم تشأ - إحسان الإصابة فتمكنت السفينتان الإفلات بعد أضرار تافهة، والواقع أن باركر نفسه حال دون أن تدمر مدافع السفينة "ديركتور" السفينة "ريبلس"، وفي مساء ذلك اليوم لأدت السفينتان "أزونت" و"بورتموث" بالفرار أيضاً، وأرسل باركر أحد الضباط بعريضة جديدة إلى الملك يعرض فيها خضوع الأسطول عند وصول العفو الملكي، على أن لا يعاد الضباط المكروهون إلى السفن دون موافقة البحارة، وأن يترك النظر في بقية المظالم لإحسانه، وأنزلت السفن لهذه المناسبة علمها الأحمر، ورفعت الحصار.

وكان رد الأميرالية على هذا الاسترحام الجديد أن أرسلت إلى الأميرال سيرتوماس بازلي أن يتخذ الاحتياطات حتى لا يهرب أحد البحارة وأن لا يقبل من أي واحد منهم سوى التسليم غير المشروط كما أرسلت إلى الأسطول النائر رفضها عريضتهم الأخيرة. ووسع ذلك هوة الخلاف، وظهر التعارض بين الآراء، وتمسك قادة الحركة بالمضي إلى النهاية، لأنهم يعلمون أن الإعدام هو الجزاء الوحيد، والأكيد الذي ينتظرهم، بينما مال جمهور البحارة إلى التسليم، وعندما انسلت السفينة "ستاندرد" ضرب مندوبها - والاس نفسه بالرصاص، وتبع السفينة استاندرد السفن أجامنون - وناساو - وفستال وايزيس، بينما قامت معارك دموية على ظهر سفن أخرى.

وعندما اتضح تحلل الحركة وتهاويها لاذ قادتها بالفرار فشق أحد القوارب طريقه سريراً وهرب من ملاحقيه وأنطلق زعماء السفينة "انفلكسبل" التي كانت أشد السفن عتواً وتطرفاً إلى عرض البحر في ثلاث قوارب، وتمكن عشرون منهم من الاستيلاء على سفينة صغيرة وجهوها وجهة كاليه واستقروا هناك، كما قيل أن زعماء السفينة مونتاجو هربوا إلى هولندا، وفي ١٤ منه - عندما سمعت السلطات أن باركر زعيم الحركة يعترزم الفرار على سفينة دانمركية - عرضت الوزارة مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه لكل من يقبض عليه، أو يقدم معلومات تؤدي إلى القبض عليه.

وتحرجت الحال على ظهر السفينة ساندوتش سفينة القيادة، فجمع باركر البحارة وسألهم عما إذا كانوا يفضلون المضي في الحركة إلى النهاية أو التسليم ففضلوا التسليم وعندئذ استدعى باركر أحد الضباط وسلمه مفاتيح المخازن قائلاً "إني أسلم إليك عهدة السفينة"، وكان أول شيء فعله هذا أن قبض على باركر من ياقته وسجنه في إحدى قمرات السفينة تحت حراسة مشددة، وأرسل إلى الأميرال يخبره، فأرسل هذا قاربه ونقل باركر إليه حيث سيق مقيد اليدين إلى الشاطئ.

وانتهت الثورة، وبدأ العقاب، وأخذت السجون تمتلئ بالبحارة وأخذ لورد كيث يتقصى الأسباب ويتولى التحقيق، وأرسل اثنان من القضاء من لندن للبحث عما إذا كان هناك أسباب خفية أو علاقة بين الحركة وبين " جمعيات المراسلة ".

وحوكم باركر، وحكم عليه بالموت طبعاً رغم كل الشهود الذين شهدوا باعتداله وضبطه للبحارة وحيلولته دون اقترافهم الكثير من أعمال الطيش وتلقي مصيره بشجاعة قائلاً "أنه يأمل أن تكون حياته هي الضحية الوحيدة" وأنه يرجو المحكمة أن تسامح الباقيين.

وظل الفارق بين اعتدال باركر والبحارة من ناحية وبين عدوان الأميرالية من ناحية أخرى إلى النهاية وحتى بعد الموت، فقد أراد رئيس المحكمة أن يعدم وهو في الأغلال على مرأى من الجميع، وأن يترك عرضه للرياح وطعمة للجوارح، ولكنه خشي أن يثير ذلك البحارة.

ولم يستجاب دعاء باركر أن يكون الضحية الوحيدة، فقد حوكم أربعاً وحكم على ٥٩ منهم بالإعدام، وأن كان الذين أعدموا بالفعل هم ٢٩ كما حكم على تسعة بالجلد وعلى ٢٩ بالسجن مدداً مختلفة.

ولو تساءلنا لماذا نجحت الحركة في سبتهيد وفشلت في نور لرأينا أن حركة سبتهيد كانت أصلية، وكان التنظيم فيها قويا - رغم عدم انتخاب فرد واحد مسئول - وكانت المطالب معقولة وعندما أجيبت هذه المطالب أو معظمها قبل البحارة ذلك، وأهم من هذا كله في نظرنا الدور الذي قام به لورد هاو Hawe ذلك الوسيط الموفق الذي قبل أن يصعد كل سفينة وارتضى أن ينزل إلى مستوى البحارة ليقنعهم زرافات ووحداً أما في نور فقد كان التنظيم متراخياً، ولم يكن انتخاب باركر دلالة قوة قدر ما كان علامة ضعف، وكان باركر نفسه غير مؤمن بأن المطالب على عدالتها تستحق ثورة، كما رأينا أن الحركة قد قامت على أساس أن مطالب بحارة نور لما تلبى، وكان من سوء حظهم أن حضر إليهم سبنسر المتعالي، الروتيني الذي لم يكن بينه وبين البحارة أية رابطة أو أصرة، ونظر إلى قضيتهم من الزاوية الإدارية فحسب.

وشتان ما بين مسلكه في رفضه مقابلة وفد المندوبين برويته وبين موقف هاو، الذي أشرنا إليه، والذي يمكن أن يعد حتى الآن درسا طبيا في الأثر العميق للعلاقات الشخصية المباشرة، والفهم المتبادل، والتجاوب في إدارة الأعمال.

ومع أن صفحة "نور" و "سبتهيد" قد طوت دون أن يبدو أنها عملتا على تحسين أحوال البحار - فيما عدا الزيادة الطفيفة في الأجور والغذاء، وأن الجلد الرهيب أستمروا موجودا حتى أوقات متأخرة - إلا أن الحركة أيقظت، الحكومة والشعب من سباتهم، وكتب أحد المؤرخين "قد لا يكون هناك في تقويمات تاريخنا ما أثار الذعر وقت حدوثه، أو ظل موضوعا لاهتمام العامة أكثر من فتنة نور سنة ١٧٩٧"، والحق أنها بدأت عهدا جديدا في تاريخ البحرية البريطانية، أو كانت على الأقل نقطة التحول، ففي سنة ١٨٠٦ منح البحارة زيادة في الأجور، وفي سنة ١٨٢٥ وضع نظام يقرر العلاوات كما صدر قانون يحرم إبعاد أي فرد من البحارة عن أهله لأكثر من خمس سنوات، أما العقوبة الوحشية عقوبة الجلد، فإنها لم تلغ حتى سنة ١٨٦٠ عندما صدر قانون التأديب البحري فجعل الحد الأقصى ٤٨ جلدة، وقيد الالتجاء إلى هذه العقوبة أوقات السلم بمقتضى منشور الأميرالية سنة ١٨٧١، وأخيرا شاهد سنة ١٨٧٩ نهاية هذه العقوبة الرهيبة، وهكذا لم تمض أرواح باركر وزملائه سدى، ولكن الإنسان مع هذا لا بد وأن يستشعر الأسى فما أثقل أغلال البيروقراطية، وما أقسى قلوب الحاكمين! وما أبطأ خطأ التقدم وما أفدح الثمن الذي نشترى به الجماعات حقوقها وحرقاتها! لا جرم أن مثل هذا الغباء والأثرة والأنانية والتراخي هي العوامل التي بررت العمل الثوري، بكل مساوئه، فحريات الشعوب أثنى من أن يضحي بها على مذبح القلة المتميزة، والحياة الإنسانية، أضيق من أن تتسع لبطأ الروتين الحكومي، وتعقيد الإدارات وقيامها بالإصلاح على أساس القطرات، قطرة، فقطرة، بين كل قطرة وأخرى عقد من السنين! \*

● اعتمدنا في وقائع ثورة الأسطول البريطاني التي أوردناها في هذه النبذة على كتاب "الجمهورية العائمة"، تأليف ج. مانواريج وبونامي دوبريه.

The Floating Republic The Mutinies of Spit head and Nore by G.M. Manwaring and Bonamy Dupree, Pelican Book.

## ما الذي حدث ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢؟؟

### سرقة السلطة تحت جنم الظلام

احترار الناس في تكييف وتوصيف ما حدث في ليلة ٢٣ يوليو، فقال بعضهم إنها ثورة، ولكن أصحاب هذه الليلة استنكروا ذلك بشدة وأوعزوا إلى الصحف بعدم استعمالها، وقال آخرون إنها انقلاب عسكري، ولكن هذا ضايق ضباط يوليو وغضبوا على من استخدمه حتى اهدتوا إلى تعبير "حركة" وجاءهم ابن الحلال بصفة "المباركة" فارتاحوا وأصبحت في الأيام الأولى لها "الحركة المباركة".

واليوم يقولون إن الأمة على بكرة أبيها تحتفل بمرور خمسين عاماً على ثورة يوليو المجيدة، وهذا كذب، وزيف، فلا يزال بين الناس من يحمل آثار سياط يوليو وبقايا تعذيبها، ولازلنا جميعاً نصطلي بآثار الهزيمة المخزية التي تسبب فيها نظام يوليو وأخرت أمة العرب مائة سنة إلى الوراء.

فإذا كان الحكام، وأجهزة الإعلام، والمتفقون والمغفلون يؤكدون أنها ثورة مجيدة، فليس هذا هو رأى الشعب.

على أنه لو كان رأى الشعب بقضه وقضيضه فهذا لن يجعلها ثورة !

لأن أبسط تعريف للثورة هو أنها حركة تستهدف تغييراً شاملاً يقوم على أساس نظرية محكمة وتطبقه الجماهير.

وما حدث في ٢٣ يوليو لم يكن فيه مقوم واحد من هذه المقومات، فلم يكن هناك نظرية، ولم تشترك جماهير، وبالتالي فإن التغيير لم يكن شاملاً.

فإذا ظل ستون مليوناً يؤكدون من الصباح للمساء، أو حتى يتوفاهم الله إنها ثورة، فإن هذا لا يغير من الحقيقة شيء، وإنما هو يؤكد أن البشرية ظلت سبعة آلاف سنة تعبد الأوثان وتتقرب إليها بالضحايا لتنال رضاها، وأنها تضيف على السبعة آلاف سنة خمسين سنة أخرى وعلى العدد ستين مليوناً.

أن هذا لا يثير دهشة المؤرخ ولا يعد أمراً غريباً بمعايير تطور البشرية..

\* \* \*

إذا لم يكن ما حدث في ٢٣ يوليو ثورة أو انقلاب.. فماذا يكون..

أقروا هذه الرؤية الجديدة...

\* \* \*

يحدث للمجتمعات في ساعات محنتها أن يظهر شخص قوى يستغل العمال ويستعبد الفلاحين ويخدع الحكومة، وبهذه الطرق يحصل على ثروة ضخمة ويكسب شهرة مدوية تغطي على أعماله القذرة.

ولما كان يعرف حقيقة أعماله، فإنه وضع ثروته في قلعة حصينة بأقفال حديدية، ومزودة بحرس شديد يحرسها ويحميها ليل نهار.

والناس يتحسرون كلما يمرون بها لأنهم يرون ثرواتهم المسروقة، ولا يملكون شيئاً، فالحرس شديد والرجل على موبقاته يظفر بالشرعية القانونية، فلا يمكن العمل بإجراءات مشروعة مقاضاته، ولا يمكن بهجوم مسلح التغلب عليه.

في مثل هذه الحالات يظهر شخص ذكي، جريء، طموح يعلم أن ما لا يمكن نيّله بالطرق المشروعة، يمكن نيّله بالدهاء والخداع وبالطرق غير المشروعة وأن ما لا يمكن الجهر به من العمل يمكن أن يؤدي سرّاً وتحت جنح الظلام.

ويحكم هذا الرجل خطته، ويدهم القلعة تحت جنح الظلام ويخدع الحراس ويضع يده على الثروة. عندما يحدث هذا فإن الجمهور يصفق لهذا الرجل الذي سرق السارق، وخدع الخادع، وتوصل إلى ما عجزوا عنه.

ولكنهم يدخرون تصفيقتهم المدوية عندما يبدأ هذا الرجل في توزيع الثروة على الذين أخذت منهم ظلماً أنهم يحيونه ويطلقون عليه "اللص الشريف".

حدث هذا في كثير من المجتمعات.

حدث في إنجلترا بصورة جعلت الأساطير تحيط بأعمال روبين هود " اللص الشريف" الذي يأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء.

وظهرت بين صفحات ألف ليلة وليلة في تلك الأيام، المجهولة التي يلف تاريخها الظلام ويصبح "العياريون" هم القوه الوحيدة التي تقف للوزراء والتجار وتسطوا على ثرواتهم.

تحدثنا ألف ليلة وليلة عن العجوز الداهية التي قررت أن تستحوذ على ثروة أحد "مصاصي الدماء" الذين أودعوا أموالهم في قلعة يحيطها بالحراس الأشداء.

فقد ملأت ثلاث "قرب" كبيرة من أجود الخمر وحملتها على حمارها وسارت تنوكاً على عصا، فلما أصبحت أمام القلعة فتحت بحركة خفيفة أفواه القرب فبدأت الخمر تنسكب على الأرض.

وصاحت العجوز بالحرس "الحقوني" الخمر انسكبت على الأرض، وأسرع الحرس إليها وفي أيديهم ما قدروا عليه من آنية بحيث أفرغوا القرب الثلاث فيها وصرخوا بالعجوز بغلظة.

وأبو بغنيمتهم وعكفوا على الشراب حتى تملكهم الذهول وغطوا في نوم عميق، وعندئذ عادت العجوز الذكية، ومعها أعوانها وفتحت الأبواب المغلقة واستحوذت على الثروة.

\* \* \*

شيء كهذا كان المسرح المصري مهيناً له قبيل ٢٣ يوليو فهناك ملك فاقد الموهبة وصفات القيادة استحوذ عليه القمار والنساء، والارتشاء وأحاطت به بطانة ساقطة تزيد خبالاً ووزراء متشاكسون هدفهم الوحيد السلطة، وأحزابهم بلا جمهور حتى حزب الوفد التي تأكلت شعبيته بعد مرور ثلاثين عاماً وأصبح هدفه الوحيد الوصول إلى الحكم بعد أن حرمته مؤامرات أحزاب الأقلية ذلك.

جيش أقسم يمين الولاء للملك القائد الأعلى والذي يمثل الشرعية التي هي قوام العسكرية، ويعد أي مساس به مساس بأولى قواعد العسكرية.

شعب أعزل مسكين لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً.

أذكر شخصياً هذه الأيام جيداً، كنا نقول إن الجيش هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تتحرك، ولكن الجيش في يد "حيدر" وحيدر هو رجل الملك.

\* \* \*

في هذا المناخ ظهر رجل ذكي شديد الذكاء يمتلكه طموح لا حد له ولا تنقصه الجرأة والإقدام، ولكن أهم من كل هذا أنه كان متأمرراً بالطبيعة والفطرة، كأنما لم يخلق من لحم ودم ولكن من مادة التآمر نفسها وكان فيه كل ما يتطلبه التآمر من ذكاء ودهاء وحذر وكتمان.

استطاع هذا الرجل أن يستقطب مجموعة محدودة من الضباط وتعرف على كل الهيئات الإخوان، الشيوعيين، الوفديين، مصر الفتاة، ولم يكن الرجل ولا معظم مجموعته محروماً من المشاعر الوطنية فقد كان "الإصلاح" هو الهدف الذي تكونت في ظله وبفضله المجموعة.

وكان هناك مجموعات عسكرية عديدة بعضها أفضل من مجموعته، ولكنه هو وحده الذي توفرت فيه صفات القيادة المطلوبة لمثل هذا العمل.

وتوصل إلى اكتساب تأييد قرابة خمسين أو ستين ضابطاً معظمهم من الرتب الصغيرة، وأعلامهم من كان حائزاً لرتبة البكباشي، أو القانمقام.

أحكم الرجل خطته، وفي ظلام ٢٣ يوليو، والملك والوزارة وكبار القادة في المصيف، هاجم القيادة واستحوذ على السلطة.

ويجب أن نقول إن النشأة الوضيعة واللاشرعية لحركة ٢٣ يوليو لم يكن منها بد، بل لم يكن هناك تصور آخر، فإن الفساد كان قد وصل بباشوات مصر إلى النهاية وقد يصوره موقفهم من طلعت حرب في أزمة بنك مصر في أعقاب الحرب العالمية وكيف أبدعوا الرجل عن البنك الذي أسسه سنة ١٩٢٠ ووهبه عمره، كما كان الملك قد فسد فساداً لا رجاء في إصلاحه أما الهيئات التي كان يرجى منها العمل في "تخصيب" المجتمع والقضاء على تخلفه مثل الحركة النقابية، فقد كانت الأحزاب قد أفسدتها ومن سوء الحظ أن الكتلة الإسلامية، والكتلة اليسارية معاً فقدتا وضوح الرؤية، فلم يكن هناك أمل في ثورة شعبية، أما الإصلاح الذي كان المناخ الليبرالي يسمح به فقد كان أبطأ من السياق، وضاق به المجتمع فلم يكن مناص من حركة سرية صغيرة تعمل "لسرقة" السلطة تحت جناح الظلام، بل لعل تعبير "نشل" السلطة أدق من سرقة السلطة، لأن المطلوب هو عملية نشل تتم بسرعة ودهاء دون أن تنتبه الضحية.

وهذا هو بالضبط ما حدث في ٢٣ يوليو. ولو كانت المجموعة الضئيلة المحدودة التي تحركت بالفعل أكبر مما هي لكشف عنها ولو تحرك الجيش بأسره كما حدث في حركة عرابي - لتنبهت لها القوى الاستعمارية وأجهضتها، فأسلوب النشل كان التصرف الوحيد، وكان ما فعله عبد الناصر هو التصرف الوحيد الممكن، وقد تلاقى ذكاؤه التأمري مع تاريخ مصر في إحدى منحنياته.

وكان احتمال كشف الحركة - رغم كل ذلك - وارداً، بل كشفت بالفعل في الساعات الأخيرة لها، ولكنها رزقت عوامل استثنائية كفلت لها النجاح في النهاية وبعض هذه العوامل يعود إلى ذكاء ودهاء مدبرها، ولكن البعض الآخر مما ليس له فيه نصيب.

فقد كانت هناك مجموعات عسكرية سبقت تنظيم عبد الناصر ولكن عبد الناصر كان قد أحكم صلته بالإخوان وتعاون عملياً معهم وكسب ثقة رئيس التنظيم العسكري الإخواني الصاغ محمود لبيب، وخدمه أيضاً، وكان ينافس في زعامة التنظيم الضابط الإخواني عبد المنعم عبد الرؤوف، وعندما مرض محمود لبيب مرض الموت، لم يكن عبد المنعم عبد الرؤوف في القاهرة ولازمه حتى الوفاة جمال عبد الناصر وأخذ منه كشوف أسماء الضباط الإخوان، بل والاشتراكات أيضاً، وكانت وصية محمود لبيب رحمه الله أن لا يختلف عبد المنعم رؤوف مع جمال عبد الناصر، فهما فرسا رهان، ولكن الحقيقة أن عبد الناصر كان لديه من الذكاء والدهاء أضعاف أضعاف ما لدى عبد المنعم عبد الرؤوف.

وكان هناك عامل شعبي ساعده قد لا يلزم به إلا المؤرخون، إن النظم التي تكون مهياً بحكم فسادها وتدهورها للسقوط، لا تحتاج إلى ما هو أكثر من ضربة، وفي روسيا كانت طلقتان من البارجة "أورورا" كافية لبث الذعر في وزارة كرنسكي التي لم تكن يدافع عنها سوى فرقة من المجندات، وتحدث لينين عن سقوط القيصرية كورقة شجرة أذرتها رياح الثورة، ولو كان لدى فاروق حمية وإرادة لوقف ضد هذه المجموعة الضئيلة التي سطت على القيادة بمحض المصادفة، ولكنه كان ملكاً منهاراً يمثل نظاماً منهاراً، وما كاد يطمئن على أنه سينجو بجلده وثروته حتى وقع بيان التنازل "لابنه".

ومن المفارقات أن تنصر الحركة على يدي ألد أعداءها فقد نما علمها إلى الملك عن طريق حسين سرى عامر منافس حيدر، وخشى حيدر أن يؤثر هذا على مركزه، فأسرع إلى الملك وهون من شأنها وتعهد بكتبها.

وكان من المصادفات التي أدت إلى نجاح الحركة أن رئيس الأركان الفريق حسين فريد عندما علم نبأ الحركة، فإنه بدلاً من أن يأمر بتحريك أي لواء أو سلاح أو كتية فإنه قرر أن يذهب إلى مبنى القيادة في الوقت الذي كان الضابط يوسف صديق يتحرك قبل الميعاد المحدد له بساعة ليلتقي برئيس الأركان وبعض ضباطه قبل أن يعملوا شيئاً فاعتقلهم جميعاً.

وقد لا يعلم الناصريون أن القوة الضاربة التي تحركت ليلة ٢٣ يوليو لم يكن معظمها من قوات "الضباط الأحرار" فقد كانت هي قوة البكباشي عبد المنعم أمين الذي زاره عبد الناصر واكتسب تأييده يوم ٢١ يوليو، كما اكتسب يوم ٢٢ يوليو تأييد القائمقام أحمد شوقي قائد الكتيبة ١٣ التي كانت قد وصلت إلى القاهرة يوم ٦ يوليو وعسكرت بالعباسية قادمة من العريش استعداداً لتحركها إلى السودان، إن هذين الضابطين الكبيرين لم يكونا من الضباط الأحرار واتصل بهما عبد الناصر قبل الحركة بيوم ويومين (يومي ٢١، ٢٢)، بل إن كتيبة يوسف صديق التي قامت بالحركة الحاسمة وكفلت الفوز للحركة عندما ألفت القبض على قادة الجيش عند اجتماعهم قبل أن يعلموا شيئاً كانت وصلت إلى الهاكستب السبت يوم ١٣ يوليو.

وعملياً كانت القوات التي تحركت ليلة ٢٣ يوليو هي:

الكتيبة ١٣ وقائدها القائمقام أحمد شوقي الذي ضم إلى الحركة يوم ٢٢ يوليو.

سرية القيادة للكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاه بقيادة قائد الكتيبة بكباشي يوسف منصور صديق، وكانت قد وصلت إلى القاهرة في يوم ١٣ يونيو بمعسكرات هاكستيب.

وحدات من سلاح المدرعات والمركبات المصفحة لسد الطرق والمنافذ بين المنطقة العسكرية والمدنية وتأمين تحركات وحدات الكتيبة ١٣ مشاة.

وهذه كانت تتبع سلاح الفرسان الذي أسهم ضابطاه حسين الشافعي وخالد محيي الدين في عملية الانقلاب بالفعل.

بالإضافة إلى بعض وحدات مساعدة..

ولكن أهم من هذا كله أن اللواء محمد نجيب قبل أن يكون على رأس الحركة، وهو ضابط فيه كل ما ينقص عبد الناصر بالضبط، فيه البشاشة والطيبة والصراحة وحسن الخلق وأكسبته شجاعته أيام فلسطين الاحترام، بحيث أصبح رئيس نادي الضباط، وحال هذا دون أن يثور الضباط على الحركة، ولو كان رئيسها المعلى هو عبد الناصر لثاروا عليه، فبعد الناصر بكباشي مغمور قد يوجد ثلاثمائة بكباشي مثله في الجيش.

في صباح يوم ٢٤ يوليو عندما استيقظ المصريون على نبأ الحركة يتلوه الضابط السادات ممهوراً بتوقيع اللواء أركان حرب محمد نجيب صفق الشعب المصري، كما صفق جمهور إنجلترا لروبين هود "الملك الشريف".

وأدخر شعب مصر تصفيقته الكبرى عندما يبدأ عبد الناصر في إعادة السلطة إلى الشعب.

ولكن عبد الناصر - على عكس روبين هود - لم يفعل.

وفي مارس ١٩٥٤م ضرب عبد الناصر عرض الحائط بأراء الجماهير وقياداتها التي كانت تريد أن يعود الجيش إلى الثكنات بعد أن قام بحركته وقضى على الملكية.

ضرب عبد الناصر عرض الحائط برئيس الثورة ورئيس الجمهورية، والرجل الذي أحبه شعب مصر من النظرة الأولى محمد نجيب.

وقضى مع القضاء على محمد نجيب، على علاقة مصر مع السودان التي تمسك بها السياسيون الحزبيون ووقفوا لبريطانيا بالمرصاد، وكان محمد نجيب رمزها.

وقضى على سلاح الفرسان روح الحركة.

وكان قد قضى من قبل على فرسان الحركة وأبطالها يوسف صديق وأحمد شوقي وعبد المنعم أمين الذين كانت قواتهم هي التي تحركت وهي التي استحوذت على السلطة.

وقضى على الإخوان المسلمين.

وقضى على الأحزاب وأولهم الوفد.

وقضى على الشيوعيين واليساريين.

وقضى على النقابيتين اللتين مثلتا الرأي العام نقابة الصحفيين ونقابة المحامين، وكان من قبل شناق خميس والبكري أيام إضراب عمال كفر الدوار فأشاع الرعب في الحركة النقابية العمالية، ثم استلحقها.

وقضى على هيئات التدريس بالجامعات واستبعد القضاة بعد أن أشيع مفخرة القانون والقضاء السنهوري ضرباً وركلاً وهتف اتباعه "فلتسقط الحرية".

وكان من دهاء عبد الناصر وتمكن الطبيعة التأميرية منه أنه عزل من قيادات الجيش بمجرد أن أستتب له الأمر كل الضباط العظام من درجة قائمقام فما فوق، ثم وضع على رأسه صديقه الحميم وتؤم روحه عبد الحكيم عامر الذي قام بالمهمة المطلوبة فكبح جماح أي بادرة لانقلاب وضمن تأييد الجيش له.

\* \* \*

لم تكن ٢٣ يوليو ثورة، أو انقلاباً، ولكن سطواً على السلطة تحت جنح الظلام.

هذه الحقيقة التي هي في أصل مولدها صاحبته حتى النهاية، وكانت هي طابع إنجازاتها التأميرية الجريئة، المثيرة، وبطريقة السطو نفسها.

لم يكن لـ ٢٣ يوليو أي شرعية، بل إن وجودها كان نفيًا للشرعية وإقامة لسلطة بدأت بالسطو تحت جنح الظلام وانتهت بالاعتصاب تحت سيف الإرهاب واستخدمت التزييف أسلوبًا وطريقة للحكم ليس فحسب للتغطية على الحقيقة، ولكن أيضًا استجلابًا للتصفيق والتهتاف.

ولو كان عبد الناصر استجاب لطلب الشعب في ١٩٥٤م لمسحت ٢٣ يوليو عار الطابع التأميري الذي نشلت به السلطة، ولكن جاء موقفه تدعيمًا لهذا الأسلوب وحكمًا به قلبًا وقالبا.

كانت الخسة والدناءة هي طابع تعامل ٢٣ يوليو مع خصومها وأبرزهم محمد نجيب الذي لولاه لما تقبلهم الجيش والشعب ومع الإخوان الذين ساندوا الحركة ومع آل أبو الفتح الذين أخبروا الضباط بانكشاف أمرهم والذين ساندوهم أول الثورة، ثم الإخوان الذين كانوا القوة الوحيدة التي لم تتحرك في ١٩٥٤م، ولو تحركت لاجتاحت الجماهير محل عبد الناصر وأنصاره الذين كانوا كالفأر المذخور.

وإنما أخذت هذا الطابع لأنها لم تقم على قيم ولأنه سيطر عليها فرد واحد.

أعلم ماذا ستقولون..

أسئلة كثيرة يحفظها البعض كالبيغاء.

أين الإنجازات؟ أين مكاسب العمال والفلاحين؟ أين القومية العربية؟ ماذا تقول في ٩ يونيو؟ ماذا تقول في الشعب الذي خرج يوم مات عبد الناصر يبكي ويلطم؟.

أسئلة عديدة جداً لدينا الرد عليها، إذا أردتم، وكان هناك مجال.

ولكني سأجتزئ بالرد على سؤاليين:

الأول: لماذا سكت خمسين عاماً طويلاً، ولم تجد الشجاعة إلا بعد أن مات عبد الناصر

والثاني: هل ننكر أنه لولا عبد الناصر لما أصبح فلاحون وعمال أساتذة جامعات ورؤساء أعلام، ولكانوا الآن في الحقول كبقية الفلاحين الذين حرموا من التعليم.

أقول رداً على السؤال الأول: أنني بعد أسبوع واحد من قيام ٢٣ يوليو بدأت أكتب كتاباً بعنوان "ترشيد النهضة دراسة توجيهية للانقلاب العسكري في مصر" وأهديته إلى "الأبطال محمد نجيب وزملاؤه كي لا يكون الفجر الكاذب"، وأخذت أرسل إلى المطبعة ما أكتبه أولاً بأول وكانت مقدمته تعبيراً عن "عشم" في هذه الحركة وأمل أن لا تنزلق، ليبدأ الفصل الأول وهو عن تقييم حركة ٢٣ يوليو وأنها في التحليل الأمين انقلاب وليس ثورة ويأتي الفصل الثاني عن إمكانية تحويل الانقلاب إلى ثورة، وما يتطلبه هذا من "البحث عن عقيدة" وهو الفصل الثالث ثم "حزب من نوع جديد" وهو الفصل الرابع.

وكانت المطبعة ترسل كل ملزمة تطبع إلى الرقابة التي أخذت تدرس الملزمة الأولى التي تحلل ما حدث باعتباره انقلاباً فجن جنونهم، وأمروا بمصادرة الكتاب وهكذا بينما كنت في المطبعة فوجئت بـ بوكس كبير يصادر "الملازم" ويأخذ على المطبعة تعهداً بعدم الطبع.

واتصلت ببعض المسنولين فطلب منى مقابلة كبير الرقباء وهو البكباشي أنور السادات فقابلته، فقال لي أن أربعة من الضباط قرءوا الكتاب، كل واحد على حده ووجدوا أن المصلحة تقضى بمصادرته.

وكان من الأعمال الأولى للحركة إعادة نظر قضية اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا وإلقاء القبض على القتلة (وكانوا معروفين)، وكان هذا عملاً حسناً حتى لو أريد به تدعيم الثقة بالحركة، ووجد الوالد رحمه الله أن علينا أن نشكر اللواء نجيب على ذلك، وهكذا جمعنا فزرننا أولاً اللواء نجيب ثم عرجنا على البكباشي عبد الناصر، وعندما عرفه الوالد بي سألتني هل أنت شيوعي؟ فلما نفيت هذا قال إن ما هذا الكلام الذي طبعته، ومن هذا يتضح أن عبد الناصر ورقباء الحركة وعلى رأسهم السادات درسوا الكتاب وقرروا مصادرته.

فهل تريدون من الكاتب أن "ينطح" والمفروض أن يكتب. وقد كتب وصودر، فماذا يفعل لقد أيقنت أن عهد تحطيم الأعلام؟ وتحطيم من يحملون الأعلام أيضاً؟ قد استهل، وأن لا حل إلا تركهم حتى تؤدي بهم حماقاتهم.

من هذا يتضح أيها السادة أننا كتبنا كتاباً ورسمنا لهم خطة للعمل ولو أخذوا بهذا من الأيام الأولى لما انزلقوا إلى الديكتاتورية.

بقي السؤال الثاني، والرد أنكم أنفسكم دليل حي على جريمة عبد الناصر، كما أنكم ضحيته.

فقد أراد - كعادته - اكتساب الشعبية والديماجوجية ففتح المدارس على مصراعيها للجميع، دون أن تكون هناك مدارس كافية، ولا مدرسين فلم يتعلموا شيئاً، وانتقلوا التعليم إلى الثانوي، وليس هو بأفضل من الابتدائي، وإلى الجامعي وهي أسوأ من الثانوي، وهكذا تخرجتم لا تعلمون شيئاً وأصبحتم أساتذة وأنتم لا تعلمون شيئاً وكنتم وراء انحطاط وتدهور مستوى التعليم.

فقبل عبد الناصر كان المجتهد من أبناء أفقر الناس يدخل أرقى الجامعات مجاناً، بل ويأخذ إعانة شهرية، أما غير المجتهد فكان من الطبيعي أن يعمل في الحقل وهو عمل شريف، وعليه قامت حضارة مصر، أو في المصانع التي قامت عليها حضارة الدول الحديثة، ولكنكم أردتم الوظيفة، والشهادة، والمكاتب والفاظ أستاذ ودكتور، في حين أنه كان من الأليق لكم والأفضل وللبلاد أن يعمل معظمكم في الحقول أو المصانع.

## معاربات في سبيل الله

الحرب هي أحشن مركب يضطر الإنسان للتورط فيه، لأنه يدخله قاتلاً أو مقتولاً جارحاً أو مجروحاً ولأنها تعتمد على القوة واليقظة فلو غفل طرفه عين عن خصمه لأصابه في مقتل.  
من أجل هذا كان القتال "كرهاً" للمؤمنين.

ومن هنا فمن الصعب علينا أن نتصور معاربات يمارسن الحرب الفعلية جنباً إلى جنب الرجال.  
ولكن كان في القتال الإسلامي ما يجعله فضيلة رغم كل الملابس الكريهة التي يتلبس بها.

ذلك أن القتال الإسلامي كان دفاعاً عن استقلال الضمير، دفاعاً عن الكيان الروحي للإنسان، لم يكن القتال عدوانياً ولم يستهدف الغنائم أو السبي أو الفتح، ولكنه شرع وأصبح مسموحاً به، بل مأموراً به، عندما يُراد "فتنة" المسلمين عن دينهم، أي إعادتهم كفاراً وإرغامهم على الإيمان بدين لا يقتنعون به وهذا هو أعظم هوان يتعرض له الإنسان لأنه يستعبد روحه وضميره وحرية ومن هنا قال القرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ {البقرة}، وجاءت كل الآيات التي تضمنت قتالاً ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ {الأنفال}، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ {البقرة}.

من هنا كان القتال الإسلامي دفاعاً عن حرية العقيدة دفاعاً عن خصوصية الضمير.

ومن ثم فلا عجب إذا اشتركت المرأة فيه، لان المرأة إنسان أولاً ومن واجبها أن تحرص على حرية عقيدتها وسلامة ضميرها.

وقد بدأ اشتراك المرأة في القتال حتى قبل أن يشرع القتال.. لقد اشتركت المرأة في ملحمة الاضطهاد البطولية التي شنتها قريش على المسلمين الأول الذين آمنوا بمحمد في الأيام الأولى للدعوة وكان من هؤلاء نساء كثيرات أشهرهن "سمية" أم ياسر وأم عمار وعانت الأسرة كلها صنوف العذاب حتى سدد لسمية أحد عتاة المشركين حربته في مقتل فماتت شهيدة.

هذه أول روح مسلمة صعدت إلى بارئها بسبب الإسلام، وكانت عبده لأحد المشركين وكان يمكن أن تمضى حياتها كما تمضى الألوف وعشرات الألوف في نُكر، ولكن بطولة هذه الجارية رفعتها إلى سماوات البطولة والشهرة وجعلت منات الألوف من النساء يحملن أسم "سمية" تبركاً وتقديراً للشهيدة الأولى في الإسلام.

ولن أشير هنا إلى المهاجرات اللاتي هاجرن من مكة إلى المدينة فراراً بدينهن، وبعضهن هاجر وحيداً وأخذ طريقه بين الصحارى والفلوات في سبيل الاستمسك الإسلام والحرص عليه، فهذا أما ليستحق مقالة خاصة.

وعندما جاءت الدفعة الأولى من مسلمي الأنصار إلى مكة مع الحاج عام ٦٢٢، ليتصلوا بالرسول وليعقد ذي معه البيعة في العقبة الثانية، وهي بيعة حرب كانت المرأة ممثلة كان عددهم ثلاث وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبه (أم عمارة) وأسماء بنت عمرو.

وفى أوسط أيام التشريق تسلل الجميع حتى لا يسمع بهم المشركون، فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب، وتسلقت المرأتان معهم حتى جاء إليهم الرسول فبايعهن بعد أن بايع الرجال.

أما أن المبايعة لهن قد حدثت فهذا أمر مقطوع به جاء في كل كتب السيرة، وأما طريقة المبايعة فقد زعموا أن الرسول لم يصفحهن وإنما كان يأخذ عليهن فإذا أقرن قال أذهبن فقد بايعتن.

والحديث ظاهر الوضع، فما كان هناك تفرقه بين رجل وامرأة في أيام الرسول، وقد حققنا هذه النقطة وأثبتنا أن الصحابية الجليلة أم عطية مدت يدها لتبايع الرسول حتى ذكر أن لا يمارسن نوحاً على ميت فسحبت يدها لأن إحدى المشركات كانت قد ناحت في "مأتم" قريبة لها، وكان عليها أن "تسعدھا" أي أن تنوح إذا مات لها أحد وما كانت لتسحب يدها لو لم تكن المبايعة باليد، وقد جاء الأمر بالمبايعة من القرآن "فبايعهن" ولم يشر إلى تخصيص، فالأمر على إطلاقه.

وما أن بدأت الغزوات حتى اشتركت النساء فيها بدءاً من أحد، حتى حروب الشام والقادسية، وكانت هذه المشاركة تأخذ في الأعم صورة مداوات الجرحى مثل رفيدة التي كان لها خيمة قريبة من ميدان القتال ووضع فيها سعد بن معاذ عندما أصيب "وكانت امرأة تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به صنيعة من المسلمين" كما جاء في الإصابة في تمييز الصحابة ص ٨١ ج ٨.

"وروى مسلم عن أنس: "أن عائشة وأم سليم، كانتا في يوم "أخذ" مشمرتين، تنقلان القرب على متونهما (ظهورهما) ثم تفرغانها في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها"، ووجود عائشة هنا - وهي في العقد الثاني من عمرها - يرد على الذين أدعوا أن الاشتراك في الغزوات والمعارك كان مقصوراً على العجائز والمتدمات في السن.

"وروى الإمام أحمد: أن ست نسوة من نساء المؤمنين كن مع الجيش الذي حاصر "خيبر": يتناولن السهام، ويسقين السويق، ويداوين الجرحى، ويغزلن الشعر، ويعن في سبيل الله، وقد أعطاهن النبي نصيباً من الغنيمة".

وعندما أراد الرسول الخروج إلى خيبر قالت أم سفيان الأسلمية للرسول يا رسول الله أخرج معك أحرز السقاء وأداوى الجرحى، فأذن لها الرسول وقال أن لك صواحب قد أذنت لهن من قومك أو من غيرهم فكوني مع أم سلمة.

وقالت أم عطية غزوت مع رسول الله سبع غزوات كنت أخلفهم في رحالهم.

وجاء في الإصابة (ج ٨ ص ٢٥١) عن أم الضحاك بنت مسعود الأنصارية الحارثية أنها شهدت خيبر مع الرسول "فأسهم لها سهم رجل" وعند تحقيق هذه النقطة أورد خبراً أن الرسول قسم لامرأتين حضرتتا القتال وهما أم الضحاك بنت مسعود أخت حويصه ومحيصه، وأخت حذيفة بن اليمان "أعطى كل واحدة منهما مثل سهم الرجل" وأهمية هذه الواقعة المساواة بين النساء والرجال في الغنيمة، وكانت الروايات السابقة تذكر أن الرسول "رضخ" لبعض المشاركات في المعركة "رضيخة" - وهي أقل من السهم.

أما نسيبه بنت كعب، وهي أم عمارة ومشهورة باسمها وكنيتها وسبق لها البيعة في العقبة الثانية فقد حاربت أمام رسول الله في أحد بالسيف عندما انكشف عنه أصحابه وأصابته جروح وقال عنها الرسول "لمقامها خير من مقام فلان وفلان" وحاربت في معركة اليمامة جيش مسيلمة وأبلى بلاءً حسناً وقطعت ذراعها في المعركة.

أما أم حرام بنت ملحان زوجة الصحابي الجليل عبادة بن الصامت الذي كان من قادة فتح مصر فقد وعدها الرسول أن تكون ممن يركبون البحر غزاة في سبيل الله، وتحقق لها ذلك عندما اشتركت في الأسطول الإسلامي الذي غزا قبرص ودفنت هناك.

واحتفظت المرأة المسلمة بهذا التقليد في حضور المعارك للتمريض أو القتال فروى عن أم موسى بن نصير أنها شهدت مع زوجها اليرموك فقتلت علجا (أى فارسا رومياً) وأخذت سلبه، وروى عن صفية بنت أبي طالب أنها في خيبر قتلت يهودياً بعد أن أحجم حسان بن ثابت عن ذلك، وروى عن خولة بنت الأزور أنه كان لها دور مجيد في حروب الشام.

وجاء في مجمع الزوائد أن أسماء بنت يزيد بن السكن بنت عم معاذ بن جبل قتلت يوم اليرموك تسعة من الروم بعمود فسطاط "رواه الطبراني ورجاله ثقات".

وشهدت الخنساء موقعة القادسية ومعها بنوها الأربعة الذين استشهدوا جميعاً فقالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مقر رحمته، وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق أبنائها الأربعة حتى قبض، وهذه هي الخنساء التي لم تمل في الجاهلية من رثاء أخيها صخر، وقد خلقها الإسلام خلقاً جديداً.

\* \* \*

وفى حرب صفين ظهرت جماعة من النساء من نصيرات الإمام على يخطبن بأفصح كلام وبأحسن بيان، ويثرن شجاعة الرجال ويندبن بمعاوية وحفظ التاريخ لنا أسماؤهن وأقوالهن لأن معاوية نفسه لم ينس موقفهن، وأراد بعد أن أستتب الأمر له، أن يفهم دوافعهن فأرسل يطلبهن منهن سوده بنت عمارة بن الأشتر وبكارة الهلالية، والزرقاء بنت عدى التي قال لها والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه ومنهن أم سنان بنت خيمة ومنهن عكرشة بنت الأطرش ومنهن درامية الحجونية التي صارحته "إني أحببت علياً لعدله في الرعية وقسمه بالسوية وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق.. الخ، ومن أم الخير بنت جرش التي قال لها معاوية بعد أن سرد ما قالته "ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ولو قتلتك ما خرجت من ذلك، ومنهن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب.

كل واحدة من هؤلاء خطبت نثراً وشعراً وأثارت الحماسة وألبت الجموع.

وبعد صفين ظهر الخوارج وظهر معهم نساء لا تقل شجاعتهن عن الرجال ومنهن من لم نعرف لهن أسماء، كتلك المقاتلة التي أطلق عليها البلجاء التي قطع الوالي يديها وساقها وصلبها ووقف تحت صليبها أحد الأنمة يتنهد ويطلب لها الرحمة.

ومثل تلك التي ضاقت بحياة المرأة وعكوفها على الزينة فقالت:

أحمل رأساً قد سنمت حمله

وقد كرهت دهنه وغسله

الإفتى يحمل عني ثقله؟؟

أما من ذكر لنا التاريخ أسماؤهن فأبرزهن غزالة زوجة القائد الشجاع شبيب بن يزيد الذي دوخ قادة بنى أمية، وهزمهم مراراً وتكراراً. أما غزالة فقد أقسمت لتدخلن المسجد الجامع بالكوفة فتصلى فيه ركعتين تقرأ فيهما سورتي البقرة وآل عمران، وعندما علم الحجاج وهو القائد الأموي الذي مكن بنى أمية وهزم كل معارضيه بذلك هرب من الكوفة!. ودخلت غزالة الكوفة جنباً إلى جنب زوجها شبيب وأم شبيب "جهيزة"

وهى لا تقل شجاعة عنهما وأوفت بنذرهما، وسجل الشاعر هذه الواقعة في أبيات كست الحجاج عاراً أبد الدهر  
وذهبت مثلاً:

أسد علىّ وفي الحروب نعامة  
فتخاء تجفل من صفير العصافير  
هلا برزت إلى غزالة في الوعي  
بل كان قلبك في جناحي طائر

أما قائد الأزارقة المشهور قطري بن الفجاءة فقد كان يحارب وجنبه أم حكيم وهى التي قال فيها:

لعمرك أنى في الحياة لزاهد  
وفى العيش ما لم ألق أم حكيم  
من الخفرات البيض لم ير مثلها  
شفاء لذي بث ولا لسقيم

"وكانت من أشجع الناس قلباً وأجملهم وجهاً وأحسنهم بدينهم تمسكاً" كما جاء في الأغاني.

هل يمكن أن يقال بعد هذا أن المرأة عورة، وأن صوتها عورة، وأن عليها أن تلتزم عقر بيتها لا تخرج  
منه إلا إلى قبرها؟؟

## ضرورة إعادة النظر

### في إجراءات الاتهام والحبس والتشهير

لم أكن في القاهرة عندما ظهرت قضية مركز ابن خلدون. إذ غادرتها يوم ٦/١١ متوجها إلى جنيف وظللت بها حتى ٧/٢٢ عندما عدت إلى القاهرة ٧/٢٣ ولم أعلم الكثير من تفاصيلها إلا ما عرضته بعض الإذاعات وخاصة في جريدة الحياة التي اطلعت في جنيف على أعداد منها.

ومع هذا فإن النذر القليل الذي علمته حرك الشجون وأعاد إلى نفسي ذكري محنة شبيهة بمحنة الدكتور سعد الدين إبراهيم مررت بها في الخمسينيات ، عندما أسست مع بعض رجال وسيدات الإصلاح الاجتماعي الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهام عام ١٩٥٣ وبدأت الجمعية حياتها بانطلاقة جريئة تكاد تكون صاعقة، على نظم السجون، واستطاعت أن تزور السجون والليمان وأن تقضي جلسات طويلة مع المدير العام للسجون وضباطه وأن تتوصل معهم إلى وضع بذرة الإصلاحات مثل تكوين كاتبات، والسماح بالتدخين، وإحلال أسرة محل البرش، وتخفيف الأغلال الحديدية للمحكوم عليهم بالمؤبد ووضع مشروع لعدم احتساب السابقة الأولى.

ويبدو أن سلطات السجون اعتقدت أن ثمة صلة غامضة بين الجمعية وبين ضباط الحركة، وإلا لما اتسمت تصرفاتها بهذه الجراءة، وكانت تلك هي أيام ربيع العلاقة ما بين الأخوان وضباط الحركة، وإلى حد ما فقد كان لهذا الظن ظل من حقيقة، فقد زرت مع بعض أعضاء وعضوات الجمعية المشير عبد الحكيم عامر الذي تجاوب مع قضية الجمعية وأرسل ألينا بالفعل خطاباً يعرب عن تقديره وتجاوبه، ولكن في أواخر سنة ١٩٥٤م تبددت العلاقة الحسنة بين الإخوان وضباط الحركة إثر حادث المنشية، وانقلبت إلى عداوة مريرة، وعندئذ حانت الفرصة لسلطات السجون لتسوية الحسابات وحبكت مكيدة محكمة للجمعية وتزامن ذلك مع اتجاه الحكومة للاستحواذ على الجمعيات الأهلية فلما قاومت هذا الاتجاه رغم جهود بعض الوسطاء، مضت المكيدة قدماً وتحولت إلى قضية، توصلوا بها لحل مجلس الإدارة ولتكوين مجلس الإدارة جديد كان يفترض أن يدعو الجمعية العمومية خلال شهرين ولكن امتد إلى سنتين توصل فيها إلى تكوين جمعية عمومية من صنعه، وعندما حكمت المحكمة بعد قرابة خمس سنين بالبراءة من المكيدة التي تحولت إلى قضية كانت الجمعية قد أصبحت في أيدي ضباط السجون أنفسهم.

وأثرت هذه المحنة في نفسي أثراً عميقاً، وبدأت أكتب السطور الأولى في كتاب بعنوان "التي يسمونها عدالة".

كان من محاوره الرئيسية إحلال نظام قاضي التحقيق محل نظام وكيل النيابة لأنني لمست أن النيابة هيئة اتهام أكثر مما هي هيئة تحقيق ومن الصعب أن تكون خصماً، وحكماً، فيقضي بالسجن وتجدد له.

ما كنت لأكتب هذه المقدمة الطويلة لولا أن أحداث قضية مركز ابن خلدون قد أعادت إلى نفسي الأحاسيس القديمة خاصة وأني لم أكتب "التي يسمونها عدالة"، فوجدتني أمسك القلم وأكتب اليوم ما كنت أريد كتابته منذ خمسين عاماً.

كما هو معروف، تبدأ عجلة التي يسمونها عدالة في التحرك عندما يصل إلي البوليس واقعة أو ينقل إليه أحد المرشدين إخبارية أو عندما يصل خطاب من مجهول فاعل خير !!

يرسل البوليس عيونه لجمع التحركات وإلقاء القبض على المتهم ويسوقه إلى القسم ومطالبته بالاعتراف، فإذا قال أنه برئ ضرب حتى يضطر في النهاية للاعتراف حتى بما لم يفعله، وعندئذ يكتب البوليس محضرا ويرسله إلى النيابة.

هذا الأسلوب يخالف مخالفة تامة ما هو متبع عند الدول الحديثة فعندما تتكاتف الأدلة، فإن سلطات البوليس تعرضها على القاضي الذي يمنحها إذنا بضبط المتهم وعندئذ تطرق بابه لتخبره بكل ذوق بأن لديها إذنا بالقبض عليه وتحذره بأن كل شئ يقوله يمكن أن يتخذ ضده وأنه يمكن أن يطلب محاميه.

إن طريقة القبض على المتهم وسوقه إلى أقسام البوليس وضربه بمعرفة ضباط المباحث وأعوانهم، حتى يقر لهم بما يريدونه واستخدام الركل والصفع والتحقير والإهانة، هي اغتيال لكرامة المواطن وإهدار لكل الضمانات التي يفترض توافرها.

إن ماضياً مظلماً قديماً يكتنف ظهور وعمل أجهزة القبض على الناس دعمته في العصور الحديثة محاولات الاحتلال البريطاني تسخير البوليس لإذلال الشعب، وليكون سوط عذاب عليه وبقيت رواسب كريمة منها حتى الآن بفعل الحكم الشمولي، وتطفح الصحف يوماً بعد يوم بأخبار لا تدع شكاً في أن هذا الأسلوب الهجمي الذي يمثل انتهاكاً لكرامة المواطن هو الدأب المقرر في أقسام البوليس.

وما أن تنتهي هذه المرحلة التي تنتهك فيها كرامة المواطن حتى تبدأ مرحلة أخرى لانتهاك حريته مع تحويله إلى النيابة.

والنيابة يعمل بها المتخرجون الذين يحصلون على أعلى درجات في سنة الليسانس بكلية الحقوق، دون أن يتوفر لهم ضرورة السن والنضج والخبرة، وبقيّة الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يمارس سلطة، لأن السلطة مفسدة والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة كما يقولون.

والأصل في النيابة أنها هيئة تحقيق، ولكن الأوضاع جعلتها هيئة اتهام، وقد ينم عن ذلك لفظ الإدعاء الذي يطلق عليها في بعض الحالات، والإدعاء نوع من الاتهام، فضلاً عن صلتها بالسلطة التنفيذية التي تقربها من الاتهام قدر ما تبعداها عن التحقيق الذي يتبلور في السلطة القضائية.

وسلطة النيابة سلطة مطلقة، لأنه لا معقب عليها فحتى في القضاء يمكن رد المحكمة ولكن النيابة لا يطعن في قراراتها لأنه لا وقت ولا سلطة، ولأن طبيعة قراراتها تنفيذية فإذا أذنت بالتفتيش فتش البيت أو المكتب، وإذا أمرت بالتحفظ عليه أغلقت أبوابه بالشمع الأحمر، وإذا أمرت بالسجن نفذ ذلك، وحتى لا يوجد احتمال للإفلات فإنها عادة ما تأمر بالحبس الاحتياطي الذي يكون أربعة أيام أو خمسة عشر يوماً ويفترن أمر السجن بكلمة، "ويجدد له" كأن تجديد الحبس أمر مفترض، وحتى لا يتطرق إليه النسيان فيطلق سراح السجن وتلك هي الطامة الكبرى.

ولو عرف وكلاء النيابة المعني الحقيقي للتفتيش والتحفظ والحبس الاحتياطي فربما ترددوا قبل أن يأذنوا به.

إن التفتيش، هو الانتهاك لحرمة المنزل وترويع لأهله من نساء وأطفال وقلب كل ما فيه من أثاث ومتاع رأساً على عقب، ومد الأيدي داخل الأدراج وتحت الوسائد والمراتب، وقد يتطلب الأمر تمزيق أغطيته.

أما التحفظ وإغلاق الأبواب بالشمع الأحمر، فهو قطع الأرزاق وإيقاف التعامل والتشرد.

وكان واجباً على القانون عندما يأذن بالتفتيش وكيف يؤدي أن يحظر أنواعاً معينة من الممارسات خلاله، وإلا فهل القانون في حاجة لمن ينبهه لأهمية التفاصيل.

وأسوأ من التفتيش الأمر بالحبس الاحتياطي.

إن الحبس الاحتياطي يتناقض مع مبدأ أصبح من بديهيات التحقيق في العالم أجمع وهو أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

والمتهم في دور التحقيق بريء ولا تثبت إدانته إلا إذا حكم عليه بذلك قاضيه الطبيعي، فكيف جاز إذن أن يوقع على هذا البريء أسوأ أنواع العقوبة وهو الحبس.

يمكن للسجن الاحتياطي أن يكون غرفة في فندق ه نجوم، ولكن هذا لا ينفي انه يقضي على حرية المتهم ويجعله سجيناً فيها ويمنعه وعن أهله وإخوانه وعمله.. والخ.

فإذا كانت الحرية هي أعز شيء للإنسان وإذا كان أولى أولويات هذه الحرية السير أو المشي أو الاتصال.. الخ، فإن السجن يعد انتهاكاً لأمن قيمه بالنسبة للإنسان وهي الحرية، يقولون الحرص على الأدلة والحيلولة دون التأثير على الشهود.. الخ، هذه دواع حسنة فاعملوا لتحقيقها دون أن يتم هذا باغتيال الحرية.

ما قيمة الحقيقة إذا جاءت باغتيال الحرية، إننا إذا سمحنا بانتهاك الحرية لأي سبب سينتهي الأمر بالقضاء على الحرية كلية.

يزيد من فداحة الأمر أنه ليس هناك حاجة لهذه الدرجة من درجات التحقيق والاتهام والحبس لأن من الممكن أن يحيل البوليس الأمر إلى قاضي التحقيق ليتولى الأمر.

وهناك فرق كبير بين قاضي التحقيق ووكيل النيابة.

فقاضي التحقيق يتوفر له بحكم كونه قاضياً خبيراً الممارسة القضائية ونضج السن، وهو قاض لا علاقة له باتهام جاء من سلطات البوليس ولا علاقة للقاضي بالسلطة التنفيذية، وباعتباره قاضياً فإنه يفسح المجال للدفاع أكثر مما تسمح به النيابة، وتحيط باسمه هالة القضاء والعدالة، في حين تعلق بالنيابة شائبة الادعاء والاتهام.

إنه القاضي الطبيعي كما يقولون أي الذي يتوفر له حصانات القضاء وتنتفي أي علاقة له بالسلطة التنفيذية والذي يطبق تقاليد القضاء والعدالة في العالم أجمع.

فإذا لم يكن للنيابة ضرورة لأن من الممكن أن يحل محلها قاضي التحقيق ويؤدي المهمة أفضل منها فإن الإصرار على بقاء النيابة وما يكلفه ذلك للدولة من أعباء مالية باهظة جعل بعض الناس يظنون أن مبرر الإبقاء عليها هو تمكين السلطة التنفيذية من تسليط قوة تمارس - تحت مظلة قضاء - إرهاب الناس وإيقاع الذعر والخوف وإبقاء شبح التفتيش والتحفظ والحبس الاحتياطي سيوفاً مسلطة على كل من تحدته نفسه بمخالفة النظام القائم كائنه ما كانت هذه المخالفة.

ما بين النيابة ومرحلة القضاء، يمر المتهم بمرحلة أسوأ ما يتعرض له، لأنه إذا كانت مرحلة البوليس قد انتهت كرامته، وإذا كانت مرحلة النيابة قد انتهت حرته، فإن المرحلة ما بين النيابة والقضاء تنتهك براءته، بما يثار من إشاعات وما يسجل من أقاويل وما تعرضه الصحف من صور.. الخ.

إنها مرحلة التشهير وانتهاك البراءة.

إنها المرحلة التي يهرع فيها الصحفيون وآلاتهم لتصوير المتهم وهو مكبل اليدين بالحديد يسوقه الحراس إلى السجن أو وهو يركب عربة الترحيلات.

إنها مرحلة التشهير والهمز واللمز وفرصة الأعداء الشامتين، وقد يكون هناك عذر للسذج من الناس إذا أساءوا الظن بالمتهم، بل وحكموا عليه بالإدانة ما دامت النيابة التي يفترض فيها الدقة والأمانة قد حكمت بحبسه احتياطياً، فما من دخان بدون نار، ولكن الأمر أعمق من هذا، إن ثلاثة آلاف سنة من الحكم الاستبدادي المركزي في هذه البلاد حالت دون أن تسنح للحرية فرصة الظهور إلا خلال الثلاثين عاماً ما بين دستور ٢٣ و انقلاب ١٩٥٢م وهي المرحلة الليبرالية حقا في تاريخ مصر التي أعجلها وقضي عليها الحكم الشمولي.

ولا يمكن لثلاثين عاماً من الحرية أن تصلح فساداً أو تمحو غشاوات الظلم أو الاستبداد طوال ثلاثة آلاف عاماً.

حتى الدعوات الإصلاحية ما بين تجديد إسلامي أو عدالة اجتماعية وقعت في أيدي فقهاء التقليد وأنصار الماركسية، وهؤلاء وأولئك لا يؤمنون بالحرية.

في هذا الجو المغلق يصبح كل تصرف يختلف عن التصرف الشائع نوعاً من الخلاف والشقاق، وربما الخيانة والكفر ولا يمكن أن يظهر إيمان بحرية الآخر، لأن حرية الآخر تقتضي ضرورة الاختلاف في التصرف أو السلوك أو الأيمان عما هو شائع وسائد، وإلا لما كان آخر.

وما أن يظهر الآخر الذي يمارس حرته حتى يوصم بالكفر والهرطقة والزندقة والخيانة والعمالة والشذوذ والخروج عن الجماعة.

هذا كله قبل أن تدخل أجهزة الدولة قبل أن تقضي عليه النيابة بالحبس الاحتياطي، فإذا قضت بحبسه فكأنما حكمت عليه بالإدانة.

وإذا كان المتهم من الشخصيات العامة المعارضة لسياسة الدولة، فهنا تطلق الدولة أجهزتها وأموالها وأقلامها وأبواقها لتشوه صفحة المتهم، ولكي تلتصق به أسوأ الاتهامات، دون أن يكون لهذه الاتهامات أساس رصين أو وقائع مؤكدة، وإنما هي الظنون والشكوك.

هل يتصور أن تعلق بجمال الدين الأفغاني الذي وهب حياته كلها لدعوته وعقيدته ومحاربة الاستعمار والطواغيت وضحي في سبيل ذلك بكل شيء شبهه وينسب إليه اتهام ؟

بلى ومن اليمين واليسار أيضا فقد ساء ظن اليمين به عندما انتمى إلى محفل ماسوني فزجوا به في معسكر الماسونيين ولم يعجب اليسار إسلاميته فتساءل لويس عوض عن "الإيراني الغامض" ونسب إليه العمالة لدول أجنبية.

ولم يكن حظ تلميذة الأثير الشيخ محمد عبده بأفضل منه، فرغم كل كفاحه فإن علاقته باللورد كرومر جعلت الوطنيين يشكون فيه دون أن يعلموا أنه ما التجأ إلى اللورد كرومر، إلا بعد ما عجز تماماً عن أن يكبح جماح الوالي الشرعي الخديوي عباس عن أن يستحوذ على أرض الأوقاف، فاضطر للاستعانة باللورد كرومر الذي أوقف الخديوي عن محاولته الشرهة.

وحاقت الاتهامات بتلميذ الشيخ محمد عبده الشيخ عبد العزيز جاويش عندما كان بصدد تكوين جمعية إسلامية، وصور ذلك شوقي:

يقولون ما لأبي ناصر	وللترك ما باله والهنود
وفيم تحمل هم القريب	من المسلمين وهم البعيد
فقلت وما ضركم أن يقوم	من المسلمين إمام رشيد
أتستكثرون لهم واحداً	ولي القديم نصير الجديد

وأخيراً ألقى القبض على أكبر شخصية في مصر الرجل الذي مصرّ الصحافة ورفع مرتب الصحفي من عشرات الجنيهات إلى مناتها وأقام صرحاً صحفياً ممرداً بكفايته الخاصة دون مساندة من الحاكم "مصطفى أمين" متلبساً بمقابلة مع شخصية من السفارة الأمريكية وادعوا عليه كتابه تقارير ضارة بأمن وسلامة البلاد، وهو الرجل الذي أوفده عبد الناصر في أعقاب سنة ١٩٥٦م إلى الولايات المتحدة ليعرض قضية مصر ويفضح العدوان الثلاثي.

لقد طعن جمال الأفغانى ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش ومصطفى أمين في وطنيتهم وإخلاصهم، وهم أفضل من عمل وخدم وضحى للأوطان.

والآن يحدثوننا عن الدكتور سعد الدين إبراهيم والأموال التي يتلقاها والتقارير التي يكتبها وأغرب شيء تزوير بطاقات الانتخابات.

كنا في معتقل "الطور" سنة ١٩٤٩م، نقرأ عن ترسانات الأسلحة التي وجدوها في بيوت بعض الإخوان وأنواع القنابل والمسدسات والمتفجرات، ويعلم الله أن لم يكن في بيتهم من الأسلحة سوى سكاكين المطبخ.

لقد أوحى لي قضية سعد الدين إبراهيم ببعض الخواطر أعرضها للقراء، مجرد عرض، ولكل واحد بالطبع أن يأخذ أو يدع، أن يوافق أو يرفض، ولكن المهم أن لا تظل من المسكوت عنه الذي لا تلفظه الشفاه ولا تسجله الأقلام.

أولى هذه الخواطر في الدول المغلقة التي تستبد نظمها الحاكمة وتسير في الاتجاه المخالف تماماً لإرادة شعوبها، فتزور الانتخابات وتضرب بأحكام المحاكم عرض الحائط وتنصب حراسات على النقابات وتصادر الصحف وتحل الأحزاب، وتسلك سياسات مالية لا يعرف حقيقتها الشعب تماماً، ويزيف التاريخ ويتضخم الفساد ويشتد التقطب الاجتماعي والاقتصادي ما بين الملايين تعيش في المقابر وعاطلين لا يجدون عملاً، بينما يوجد منات من البليونيرات يملكون الطائرات واليخوت والمدن السكنية والأبراج والشقق التي تبلغ الواحدة بضعة ملايين من الجنيهات.

في هذه الدول، التي تنفق حكوماتها أموالها على السجون والأمن المركزي والسيارات المصفحة، ويكون الركل والظم والسب والتعذيب سياسة مقررّة في أقسام البوليس ومراكز أمن الدولة، وتحكم بالقوانين سيئة السمعة وأحكام الطوارئ عشرات السنين...

في هذه الدول التي لا يعرف أبناؤها أخبارها إلا من الإذاعات الأجنبية وتصر حكوماتهم الغيبة مع هذا على كتمانها.

إذا اتصل كاتب أو مفكر أو رجل عام بهيئات دولية خارجية، هل يعد هذا الرجل خائناً، أو عميلاً، أو جاسوساً؟

نريد أن نفهم هل النظام القائم في دولة ما هو الممثل للوطن والدولة؟ أم أن الجماهير المطحونة التي لا تستطيع أن ترفع صوتها ولا تتكلم أو تعمل، هي التي تمثل الشعب والأرض والوطن.

هل كان جمال الأفغاني عندما ندد باستبداد وسوءات شاه إيران في مجلته ضياء الخافتين التي أصدرها في لندن كان يرتكب خيانة وطنية ويكشف الغسيل القدر أمام أعداء بلاده؟ كما ذهب إلى ذلك الأستاذ أحمد أمين أم أنه لم يجد إلا هذه الطريقة لإيقاف فساد الشاه؟

هل أخطأ الشيخ محمد عبده عندما صافح اللورد كرومر لينقذ أموال وأراضي الوقف من قبضه الحاكم المصري الشرعي الطماع الذي كان يريد الاستحواذ عليها؟

أعجبني في لقاء تلفزيوني ما قاله الأستاذ نجاد البرعي لمناظره أنتم تريدون أن تستفردوا بالناس والشعب ونحن نحول دون ذلك.

هل نسلم الشعب فريسة سهلة لكل استبداد حكومي حتى لا يضطر للاستعانة بهيئات أجنبية.

ما هي الوطنية؟ هل الوطنية أن تؤيد الحاكم بشخصه وأن تمزج بينه وبين الوطن؟ أو أن الوطنية هي أن تخلص للشعب وحده وللقيم النبيلة من حرية وعدالة؟ ومن هو الملوّم والخائن؟ هل هو الكاتب الذي يستنجد بالهيئات الأجنبية لإنقاذ شعبه؟ أو الحكومة التي أجات هذا الكاتب إلى ذلك؟

لقد قالت ممرضة بريطانية "الوطنية وحدها لا تكفي"، بينما كان أحد الكتاب أشد صراحة منها عندما قال إن الوطنية هي الملاذ الأخير للرجل النذل.

لقد صعدا القضية إلى أعلى مستوى يمكن أن تعالج عليه كائناً ما كان، وإن كان الواقع قد لا يصل إلى هذا المستوى.

## الخاطرة الثانية:

الدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ أكاديمي عريق تعلم على يديه أفواج أو أجيال من الدارسين، بل ومن المدرسين وأصدر العديد من الكتب وكان نجماً في التلفزيون ووصلت شهرته إلى العالم الخارجي واستعانت به أجهزه الأمم المتحدة وأسس من عشر سنوات مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية واتخذ له اتجاهاً مستقلاً وأحاطه بمجموعه من الأمناء جددت ثلاث مرات وكل مرة كانت تضم رئيساً سابقاً للوزارة وعدداً من الوزراء والسفراء والكتاب، هذا الأستاذ الأكاديمي ورجل الدراسات والبحوث انقلب بين عشية وضحايا إلى متهم يساق

إلى السجون كما يساق معتادو الإجرام، وادعت مجلة القاهرة في عددها الصادر في ٢٠٠٠/٨/١ سعد الدين إبراهيم يبكي ويعترف أخطأت في حق بلدي ليلة القبض على سعد الدين إبراهيم بملابس السجن.. الخ.

وليست هذه سوى عينه صغيرة مما نشرته بعض الصحف وحكمت على الرجل بالإعدام الأدبي وأسقطته من منصة العمل الوطني الرفيع إلى درك الخيانة والعمالة والارتزاق.

يا سبحان الله !!!

هل لم يفعل سعد الدين إبراهيم ومركز ابن خلدون على مدار الأعوام الطويلة شيئاً حسناً ولو مرة واحدة، كان يمكن أن يذكر جنباً إلى جنب الاتهامات والادعاءات.

لقد كنت شخصياً أختلف مع د. سعد الدين إبراهيم في كثير من المسائل، ولكني قبلت أن أكون من الأمناء لأن الرجل طاقة إيجابية وشعلة ذكاء، وله من الاتصالات ما يمكنه من أن يؤدي الكثير، وأنا لا أبيع لنفسي أن أحكم على من اختلف معه، لأن الحقيقة متعددة الأبعاد، ولأن الاختلاف يؤدي في النهاية إلى تكامل وهو لا يفسد للود قضية، بل يقدم للود أعظم خدمة.

إن الشماتة صفة وضيعة صغيرة لا يمكن أن تسيطر إلا على الصغار ومع هذا فقد يكون من حق أي واحد أن يشمت ولكن لا يجوز أن يصب هذه الشماتة على صفحات جريدة عامة لأنه يهين القراء بنشر قاذوراته ويدين شخصاً لا يزال حتى الآن بريئاً باتهامات ليس له أن ينشرها حتى ولو كانت صحيحة، لأن الصحافة ليست بوليساً يتقصى الأخطاء والاتهامات، وليست هي كلاب صيد تتعقب فرانسها، وليست الأقلام سكاكين لتنتهش لأعراض، وإنما هي وسيلة للخبر الصادق أو المعلومة النافعة، أو التوجيه السليم، فما بالك إذا كانت هذه الاتهامات باطلة أصلاً وفصلاً، شكلاً وموضوعاً.

إذا لم يكن لدى بعض الصحفيين وازع الضمير وحاسة من التقدير فأعتقد أن القانون يجب أن يحمي أعراض الناس وكرامتهم من مثل هذه الاتهامات بحيث يكون على الصحيفة أن تدفع تعويضاً كبيراً يصل في الخارج إلى ملايين جزاء على ما أقدمت عليه من التشهير والنيل من كرامات وأعراض الناس، والاتهامات التي اتهم بها الدكتور سعد الدين إبراهيم تثير الضحك، إن كتابة البحوث والتقارير الاقتصادية وتفسير الظواهر الاجتماعية.. الخ، هي صور مألوفة تمارس في أربعة أركان البلاد ويشغل بها الكثير من أساتذة الجامعة وغيرهم ويتقاضون بالطبع مكافآت ضخمة لأنهم في الخارج يقدرون الكلمة ويقدرون الفكر، ولا يمكن لهؤلاء أن يقولون أكثر من أحكام المحاكم وما تفيض به صفحات الجرائد من أخبار الهبر والفساد ونهب أموال البنوك.

أما أخذ الإعانات من هيئات خارجية، فهذا أيضاً وضع مقرر يمارس منذ ثلاثين عاما تحت سمع وبصر الدولة ورقابتها، وأعلم أن الجامعة العمالية ما كان يمكن أن تقوم لولا الإعانات الضخمة التي قدمتها مؤسسة فريد ريش إبيرت الألمانية، وأن دورات عديدة لمعاهد المؤسسة الثقافية العمالية، كمعهد العلاقات العمالية الدولة، ومعهد الدراسات الثقافية، ومعهد الثقافة السكنية، ما كان يمكن أن تتم لولا المعونات التي يقدمها بصفة منهجية المكتب الأفريقي للاتحاد الأمريكي للعمال، أما المعونات الأجنبية في مجال الآثار وإصلاح البنية.. الخ، فحدث ولا حرج.

ويصدر مركز ابن خلدون ميزانية سنوية يوضح فيها المبالغ التي تقدمها هيئات خارجية وهو يدفع ضرائب عن ميزانيته تلك.

وقد تعرض كل واحد يعمل في الخدمة العامة للاتهام، وأتهم أكبر مجموعة من أكبر المفكرين في فترة الحرب الباردة بتقاضي أموال من المخابرات الأمريكية C.I.A لتأسيس مجلة انكوتتر، ومن هؤلاء أرثر كوستر وسيفن سبندر، وامبازيو سيولوني، وجورج أورل، وأندريه جيد الذين ألفوا كتاب "سقوط الآلهة"، وليس المهم على كل حال قبول أموال، ولكن المهم هو فيم تنفق هذه الأموال ؟

وعندما لاموا الإمام الشهيد حسن البنا لأنه قبل تبرع شركة قنال السويس الاستعمارية كما قال أحد المتشجنين فإنه قال: المال مالنا والقناة قناتنا وهذه بضاعتنا ردت إلينا، وشيد بالمبلغ مسجداً كان هو المقر الأول للإخوان المسلمين.

وأغرب الاتهامات تهمة تزييف الانتخابات ؟ فهل الدكتور سعد الدين إبراهيم حكومة ؟ فهذا النوع من الصنف هو ما تحكركه وزارة الداخلية التي تعلن نتائج الانتخابات من سنة ١٩٥٢م حتى الآن، فاتهم مركز ابن خلدون إنما هو نوع من "رمتني بدائها والسلت".

وقد قرأت بجريدة الحياة اللندنية ملخصاً للمسرحية التي وضعها الفنان علي سالم ولم أر في هذا الملخص إلا الدعوة الصادقة للمشاركة في العملية الانتخابية التي يأمر بها القانون وتحض عليها كل الأحزاب السياسية.

إننا مهما اختلفنا مع الدكتور سعد الدين إبراهيم فلا أحد أن ينكر أنه أستاذ جامعي، ومؤلف، وصاحب أبحاث، ورجل من رجال الخدمة العامة، وأنه أحد المبدعين والبنائين الذين يبنون ويثرون.

وهذا ما يؤدي إلى الخاطرة الثالثة:

إن مبدأ المساواة في المعاملة القانونية مبدأ سليم يجب أن نحرض عليه، ومن نافلة القول أن هذا المبدأ يفقد قيمته إذا كانت المعاملة امتهاناً وانتهاكاً وتجاهلاً لأولي مبادئ الإنسانية والكرامة.

عندما يحدث هذا وهو حادث للأسف الشديد أفلا يجوز لنا حتى يتخلص الجميع من هذه الوصمة أن نطالب باستثناءات لبعض الأفراد لا لحسب ولا لجاه، ولكن لأنهم خدموا بلادهم وأثروا حياتها بأفكارهم وأعمالهم.

وقد يتدخل عامل - ككبر السن - فهل يمكن أن يعامل كهل في السبعين من عمره لا يقوى على تحمل وحشية المعاملة وخشونة الأوضاع، كشاب في الثلاثين قد يستطيع أن يقوى أو يصمد وهو عامل قد أقرت به القوانين الجنائية في بعض الحالات.

على أن أفضل ما يمكن نهدي به في هذا المجال هو الإسلام لأنه يقدم توجيهات ثمينة، وأنه مع حرصه على معاقبة الشريف قبل الوضيع، فإنه يلاحظ اعتبارات ترتفق على الأصل دون أن تخل به.

من مبادئ الإسلام تقدير السابقة والفضل وما قام به إنسان من خير وما أسهم به في بناء مجتمعه وإذا كان هذا الفضل هو مبادرة في مناصرة الدعوة عندما تجهم لها الناس وعندما ضيقت عليها المسالك أو حتى حاربتها القوى المعادية، فإن هذا الفضل يصبح سابقة لها تقديرها الكبير، وقد تورط أحد الصحابة قبيل فتح مكة في عمل قد يراه البعض خيانة، ولما طالب عمر بن الخطاب الرسول أن يقتل الرجل، رد الرسول: "أليس قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال افعلوا ما شئتم"، ومع أن في هذا الحديث كلام فلا يخلو من معني، والثابت أن الرسول قد عفي عن حاطب بن أبي بلتعة.

وتخلف عن اللحاق برسول الله في غزوة تبوك ثلاثة لا لعذر أو ضرورة ولكن استسلاماً للضعف البشري، وعندما عاد الرسول اعترف هؤلاء المتخلفون بتقصيرهم، وبعد أن أمر الرسول المسلمين بمقاطعتهم، عفى الله عنهم ونزلت فيهم آيات نيرة.

فمع أن الاستثناء الذي لوحظ في معاملة حاطب بن ابي بلتعة والثلاثة المتخلفين، قد لا يتفق تماماً مع مبدأ المساواة، فإنه يتفق مع مبدأ العدل الذي يرتفق على المساواة، فليس من العدل أن يعامل رجل لم يجاهد ولم يضحي، كرجل جاهد وضحي، وليس من العدالة أن يعامل أستاذ جامعي جليل حامت حوله بعض الشبهات، معاملة مسجل خطير، أو معتاد الإجرام.

والحرص على العدل وهو المثل الأعلى للإسلام والقاعدة التي تقوم كل العلاقات عليه يجعل الإسلام يحتسب الحسنات جنباً إلى جنب السيئات ومن هنا كان رمزه ميزاناً توضع في كفة الحسنات وفي الأخرى السيئات فإذا رجحت الأولى فاز ونجا وإلا سقط وعوقب.

من أجل هذا نقول إن المعاملة التي عومل بها الدكتور سعد الدين إبراهيم خلال القبض عليه وتفتيش منزله ثم سوقه للنيابة وحبسه هذا الحبس الطويل الذي نقطع أنه ليس مما تتطلبه ضرورة إتمام التحقيقات ثم ما خاضت به بعض هذه الصحف وقد حانت لها فرصة الشماتة الوضيعة كل هذا يخالف تماماً أدب الإسلام حتى إن لم يكن الدكتور سعد الدين إبراهيم من أنصار الإسلام بوجه خاص، الأمر الذي لا أجروا على القبول به، لأنه قد يكون عند الله أقرب من بعض الذين يدعون الإسلام.

لقد كان الرجل يستحق منا ما هو أفضل من ذلك، وقد يأتي يوم تعتذر جهات عديدة عما قدمت أو حتى فاخرت به وقد يدفع بعضها الثمن ومن عفى وأصلح فأجره على الله.

وأخيراً فأود أن أختتم هذا المقال بخاطرة قد تشفع جدتها وعرابتها في أن تكون الخاتمة، فالمعروف أن البوليس يراقب الجريمة والمجرمين، فعندما يعلم بمؤامرة فإنه يتابعها حتى يقبض على أصحابها متلبسين، أي وهم بصدد القيام بالخطوة الأخيرة في المؤامرات حتى يكون الاتهام ثابتاً فيحكم عليهم.

وعند إنعام النظر في هذه الطريقة يتضح أنها ليست هي الطريقة المثلى في حقيقة الحال فأولاً ما الذي يجعل البوليس يتقصى ويتجسس ويجرى تحريات.

الرد البديهي حماية الأمن العام وتلك هي مهمته، وهي مهمة لا يمارى أحد في قداستها، فليكن، ولكن هل حماية الأمن العام لا تقوم إلا بالتجسس والتصنت وبث العيون.. والخ.

ألا يعد هذا انتهاكاً أو تدخلاً في مبدأ من أقدم المبادئ التي قامت عليها المجتمعات الإنسانية، وهي الحرية وقداسة البيت، وسرية التصرفات الخاصة.

مثلاً ما الذي يجعل البوليس يوقف شاباً أو فتاة تسير في منتصف الليل ويطلبه (أو يطالبها) بإثبات شخصيتهما، وقد يسوقه أو يسوقها إلى قسم البوليس.

عملية إفتئات لا شك على الحرية الشخصية.

ولكن ليس هذا هو المهم.

المهم أن أسلوب متابعة الجريمة وهي تنسج خيوطها حتى تصل إلى الخاتمة التي تبرر القبض، عملية ليس لها من مبرر إلا المنهج البوليسي التقليدي الذي وإن كان يقتصر على المتابعة في معظم الحالات، فإن الرغبة في استعجال النتيجة قد تدفع بأصحابه إلى إغراء المتهم بارتكاب الجريمة وإيقاعه في شباكه، أفلم يكن من الأفضل مثلاً التدخل للحيلولة دون إتمام الجريمة؟ بدلاً من الانتظار حتى اللحظة الأخيرة لا شيء إلا القبض على المجرمين.

ثمة حديث معروف "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، وفسر الحديث نصره الأخ الظالم بأن "تكفه عن الظلم".

هنا مجتمع يترابط أعضاؤه برابطة الأخوة وتقوم بين هؤلاء الأعضاء جميعاً حاسة من حواس التكامل والتعاون على الخير فما أن يبدأ أحد في الانحراف عن الطريق القويم حتى يجد من أخيه من يثنيه عن هذا الطريق ومن يوجهه وجهة الخير ولا يخطر ببالهم أبداً أن يتركوه حتى يتم جرمه، وعندئذ يلقون القبض عليه ليلقي جزاءه، بل لعلهم يرون أنهم لو سلكوا هذا المسلك لكان هذا منهم مشاركة بنوع ما في الجريمة.

وهناك حديث "الدين النصيحة" لعامة الناس وخاصتهم وهناك التوجيه القرآني فذكر إن نفعت الذكرى.

فهذا المجتمع لا يترك الأفراد حتى يستولي عليهم شيطان الإثم والانحراف وإغراء الجريمة، إن أفراداً آخرين يتصدون ناصحين مذكرين ويمكن لهم بذلك الحيلولة دون الجريمة، السؤال هو هل يمكن أنت تأخذ هذه المحاولة شكلاً منهجياً منظماً يلحق بالدولة (أو المجتمع) فتكون هناك هيئة باسم هيئة النصح والمكاشفة تلحق برئيس الحكومة وتبدأ عملها عندما تصل إلى جهات المراقبة والمتابعة أنباء شكوك وتساؤلات حول السياسات المتابعة لفرد أو هيئة وأنها لو صحت أو تركت لانحرفت عن الاستقامة أو تجاوزت الخطوط الخضراء أو تجاوز المسموح به أو حتى أن تقع تحت طائلة القانون.

ويتصل هذا الجهاز من أجهزة المراقبة والمتابعة على اختلافه برئيس الدولة ليضع تحت يده مذكرة عن الموضوع فينتدب رئيس الحكومة إحدى الشخصيات العامة البارزة التي تظفر بالاحترام والتقدير من أعضاء هيئة النصح والمكاشفة، ليقوم بزيارات للشخص أو الهيئة ويقدم النصح بإعادة النظر، وأن السياسة المتبعة توشك أن تقع تحت طائلة القانون، وهو يقوم بهذه الزيارة بروح أخوية، وبعد استبعاد مظنة التدخل أو التطفل أو الاستعلاء ولكنه واجب النصيحة والمكاشفة والتذكير التي يأمر بها الإسلام ويعتبرها جزءاً من الواجب الاجتماعي العام.

أتصور وأكاد أجزم أنه لو أتبع هذا الأسلوب لحال دون تجاوز كثير من التصرفات خطوط الأمان أو على الأقل لحمل أصحابها على إعادة النظر، أفليس هذا أفضل من التربص والتجسس حتى يقبض على المتهم متلبساً فتوضع يديه في الحديد ويساق في عربة الترحيلات إلى الزنازين والسجون التي تمتلئ بالمتهمين ثم يساقون إلى المحاكم التي تنصب موازين العدالة ويصول فيها ويجول المحامون ثم ينتهي الأمر إما بالبراءة أو السجن مرة أخرى، وكان يمكن لهذا "المولد" من سجون ومحاكم وحراس وضباط وقضاة ومحامين أن يهبط إلى الحد الأدنى، وأن لا تقع الجريمة المحتملة بالفعل\*.

## ثلاث مكافحات في سبيل الثقافة والمعرفة

بقدر ما حث الإسلام والقرآن والرسول، المسلمين علي تعلم العلم، وإعمال العقل، والاستفادة بكل ثمرات الثقافة وما خلفته الحضارات السابقة، بقدر ما كانت الفكرة التي سادت المجتمع الإسلامي طوال عهوده كلها - باستثناء فترة النبوة الباهرة - إن هذا العلم يجب أن يقصر علي الرجال، وإن من الخطأ أن تعمم حتى يشمل النساء وراجت المقولة "علموهن الغزل ولا تعلموهن الخط".

وبناء على هذه القاعدة الجائرة الظالمة حرمت المرأة المسلمة من العلم في حين أن المرأة تحتاج إلى العلم أكثر من الرجل، لأن العلم يكفل للمرأة سلاحاً يمكن بفضله أن تجد عملاً أو تحترف مهنة وبهذا تنقذ نفسها من التشرد والضياع، وتحول بينها وبين أن تحترف أقدم مهنة في التاريخ؛ البغاء فأنظر إلى حماقة هؤلاء الأسلاف الذين أرادوا أن يحموا بناتهم من الغواية ففقدوا بهن إليها..!

سنعرض فيما يلي لثلاث سيدات كافحن كفاحاً طويلاً مريراً حافلاً بالصدود والقيود التي تحول بينهن وبين شوقهن الجارف للثقافة والمعرفة ونور العلم وإرادتهن الحديدية لنيلها.

اثنتان منهما من مصر، والثالثة من فلسطين، وكأن حالهن يقول: "كلنا في الهم شرق".

### أما الأولى

فهي السيدة - الدكتورة فيما بعد - عائشة عبد الرحمن التي نشأت في دمياط، وهي أحد مصبي النيل في البحر الأبيض المتوسط فارتبطت بالنيل والبحر بحيث اختارت لنفسها اسم (بنت الشاطي) وكانت أمها تنتمي إلى أحد شيوخ الأزهر، بينما كان أبوها شيخ من العلماء يمارس التدريس وينتمي إلى طريقة صوفية تجعله ينتقل لحضور الموالد والأعياد الصوفية، وقد سمح لها وهي طفلة صغيرة أن تنتظم في الكتاب حيث أبدت ذكاء واستطاعت أن تتفوق في القراءة والكتابة وتحفظ القرآن.

وكانت تزهر على أترابها من البنات بهذه المعرفة ولكن هؤلاء البنات اللاتي دخلن مدرسة نظامية تدعى مدرسة "اللوزي" رددن عليها حديثاً عجيباً عن المدرسة وتحدثن عن "الأبلوات" اللطيفات وعن قاعات الدرس المزينة بالصور والخرائط.. الخ.

وذهبت إلى أبيها طالبة أن يلحقها بهذه المدرسة ولكن أبوها رد في حسم "بنات المشايخ لا يخرجن إلى المدارس الفاسدة المفسدة، وإنما يتعلمن في بيوتهن"، وأمرها أن تتلو سورة الأحزاب حتى بلغت الآية "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ".

واكتأبت عائشة وبان عليها الذبول والانطواء وحاولت أمها أن تقنع أبها بلا فائدة حتى تدخل جدها، وما زال بوالدها حتى انتزع موافقته بثلاثة شروط هي:

أن لا دخل لوالدها إطلاقاً بأي طلب للالتحاق أو إجراء من إجراءاته أو أي شأن يتصل بالمدرسة من قريب أو بعيد، (كأنما المدرسة رجس من عمل الشيطان لا يريد أن يحيق به !!)..

أن تتابع دارستها الدينية في البيت.

أن تنقطع نهائياً عن الخروج إلى المدرسة بمجرد أن تشارف سن البلوغ وذهب جدها وألحقها بالمدرسة.

وتفوقت في المدرسة بفضل دراستها الدينية في الكتاب وما كانت تلتقطه من أحاديث والدها.

وأتمت الدراسة بمدرسة " اللوزي " وقد تجاوزت سن العاشرة. التي حددها والدها لحجزها في البيت.

وكانت لذت التعليم قد تملكته، ونشوة المعرفة تدفعها لأن تدخل المدرسة الراقية التي تواصل فيها بنات مدرسة " اللوزي " دراستهن.

ورفض والدها في إصرار، ولجأت أمها إلى جدها وأخذ الجد يحادث الأب وطالت المجادلة حتى تحولت إلى مشادة وخصومة خرج جدها على أثرها ثائراً، مغضباً فلم يلتفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة فألقت به، فلم ينهض بعدها على ساقه، وحملوه إلى البيت فظل به مقعداً كسيحاً وأرسلها أبوها لتعني بجدها، ولكن هذا الجد النبيل عمل على أن تلتحق بالمدرسة الراقية، وكره أبوها أن يدخل في جدال جديد مع جدها فاستسلم للأمر الواقع.

وكان جدها هذا متفتحاً يقرأ الصحف بانتظام وكانت عائشة تحضرها له، وتقرأ له بعضها، وكان يملئ عليها كتابات يرسلها إلى المسؤولين أو إلى الصحف فزادت ثقافتها، وأتمت الدراسة في المدرسة الراقية وكانت قد بلغت الثالثة عشر وهي سن الحجاب فضلاً عن أنه لم يكن في دمياط مدرسة أعلى يمكن أن تنتظم فيها وكانت أقرب المدارس إليها هي مدرسة المعلمات بالمنصورة وطمحت عائشة لدخول مدرسة المعلمات وشاء الله أن يتفق ميعاد امتحان المتقدمات في وقت كان أبوها مسافراً في إحدى رحلاته الصوفية لحضور موالد آل البيت، وجازفت أمها فتسللت بها من دمياط إلى المنصورة وتركتها في القسم الداخلي بمدرسة المعلمات حيث أدت الامتحان وعادت مسرعة لتأخذ أول قطار يعود بها إلى دمياط.

وبعد فترة فوجئت بأن زميلاتها اللاتي أدين الامتحان معها تلقين إخطاراً من المدرسة بالحضور للانتظام في القسم الداخلي، ولم يصلها شيء مع أنها كانت الأولى في الامتحان.

وأشار جدها بأن تكتب إلى المدرسة فجاء الرد أن والدها تقدم إلى المدرسة بصفته ولي أمرها وسحب منها كل أوراق التحاقها بها.

وجن جنون عائشة، وأضربت عن الطعام حتى خافوا عليها وتجمعوا على والدها، ولم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطاباً إلى إدارة المدرسة، وماذا فعل هذا الوالد برا بوعده ؟

لقد وضع ورقة بيضاء في ظرف أغلقه وكتب عليه عنوان المدرسة، وبذلك تحلل من وعده بأن يرسل خطاباً إلى المدرسة !!

ومضى شهران على بدء الدراسة وانكشف الأمر وعادت الأزمة وهنا لاذت والدتها بشيخ والدها في التصوف الذي أمر بأن يسمح لها بمواصلة الدراسة، وأسرعت فأعدت كل ما طلبته المدرسة من ملابس ومناجاة لدخول القسم الداخلي، ولكنها فوجئت بأن لا مكان لها في المدرسة فقد استكملت العدد، وقبل أن تفيق من

ذهول الصدمة قالت الناظرة: إن من الممكن أن تحول أوراقها إلى مدرسة ستفتح قريباً في حلوان بالقاهرة وستجد مكانا لها فيها، وتطوعت فكتبت بعض الأوراق اللازمة.

وبدلاً من أن يوهن هذا الإخفاق من همتها ومن همة والدتها فإنه دفع الوالدة لأن تعود إلى دمياط لتبوع سواراً ذهبياً، وقطعت لها ولعائشة تذكرتين في الدرجة الثالثة في القطار الذاهب إلى القاهرة وليفعل الشيخ ما يشاء.

وكان لأمها خال في القاهرة أخذهما إلى حلوان ليفاجأ بأن الدراسة لن تبدأ إلا بعد أسبوعين ولكن الناظرة كانت كريمة، فأشفتت على هذه الفتاة الريفية، وعلى أمها المضحية، وقبلت أن تقيم عائشة في المدرسة لحين الافتتاح واطمأنت أمها إلى أنها في رعاية سيدة كريمة، فودعتها وعادت إلى دمياط لتقف وحدها في مهب الإعصار، وعلى وجهها نور الاستشهاد!

ورغم هذا، فقد وجدت عائشة الويل من الروتين والإجراءات، فسقطت في الكشف الطبي لأنها استعارات نظارة عمها بفكرة أن النظارات كلها سواء، وأخذها عمها إلى محل للنظارات صنع لها نظارة تتفق مع مقاس نظارها، ولكن الطبيبة الإنجليزية رفضت إعادة الكشف وبعد جهود مستميتة تقرر أن تلتحق بمدرسة معلمات طنطا، وأمضت العام هناك ونجحت بتفوق ولم تكن طوال هذا العام تعلم بما جرى في منزلهم فقد توفي الجد دون أن تراه، وفقدت بفقده نصيرا لها وتمسك أبوها بضرورة إعادتها إلى الطريق المستقيم الذي انحرفت عنه ووصل التوتر بين أمها وأبيها حدًا هدد بأن تفقد أخواتها شقيقات خمس وشقيقان بيتهم، فوجدت أن عليها أن تضحي وأصيبت بمرض حال دون دخولها وشطب اسمها.

لكن الإرادة القوية لا تعرف المستحيل.

لقد استعارت الكتب المقررة على السنة النهائية بمدارس المعلمات ودرستها من المنزل ثم تسللت من البيت خلسة، وأبوها مسافر حيث أدت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا وكانت الوحيدة التي تقدمت من المنزل ونجحت وكانت الأولى.

وكان أقصى أمانيتها بعدئذ أن تستكمل دراسة "القسم الإضافي" الذي يمكنها من التخرج ويؤهلها أن تكون معلمة في المدارس الابتدائية، ولكن الله تعالى كان يريد لها شيئا لم تكن تحلم به، ولكنها ما أن علمت به حتى عضت عليه بالنواجذ كما يقولون، وأبت إلا أن يتحقق.

ذلك أن أساتذتها في الامتحان الشفهي أعجبوا إعجابا شديداً بحسن تلاوتها للقرآن الكريم ثم بمحفوظاتها من الشعر في الجاهلية، والإسلام ثم من شعرها هي فاستخسروا أن تقف هذه الموهبة عند شهادة المعلمات ووجهوها لأن تدخل الجامعة!

الجامعة!

أي حلم، وأي عالم لم تكن تعلم عنه شيئا ولم تفكر فيه أصلاً.

قبل أن يسرح فكرها إلي هذا العالم العجيب فاجأها المعلمون الممتحنون بأن هذا يقتضي تغيير مسارها التعليمي، وأن عليها أن تبدأ من أولي مراحل التعليم النظامي فتأخذ شهادة الابتدائية وأن تلم باللغة الإنجليزية والفرنسية اللتين كانتا مقررتين.

إن كل أمجادها من قرآن وشعر لم يكن ليجديها شيئا أمام نظام التعليم المدني الذي وضعه الاحتلال البريطاني لمصر ومستشار التعليم "مستر دنلوب"، وكان معني هذا أنها وقد كادت بشق الأنفس تأتي إلي النهاية أن تنكص مرة أخرى إلي بداية جديدة عليها بالمرّة.

لم يكن من السهل عليها وقتئذ أن تقبل القرار، فمضت في خطها التعليمي وعينت لأنها كانت الأولى في كفاءة المعلمات معلمة في مدرسة معلمات المنصورة حتى تظفر بالإقامة الداخلية وتبعد عن جو والدها ومنغصاته اليومية لها، وتركز حلمها في دخول امتحان القسم الإضافي، ولكنها فوجئت قبيل الامتحان بأربعة أشهر أن الامتحان هو من حق المقيدات بالمدرسة دون المنتسبات من خارجها.

وكافحت مع رجال التعليم، ولكن المراقب نصحتها أن تعدل عن التمسك بدخول القسم الإضافي وأن تتقدم للامتحان في الشهادة الابتدائية وهو مباح للجميع، ولم يكن هناك مجال للتردد لأن آخر موعد لتقديم الطلبات كان هو اليوم وأمر المراقب فأحضرت استمارة من ديوان الوزارة وجلست علي مكتبه فملأت خاناتها باستثناء كتابة اسم التلميذة بالإنجليزية فكتبه لها أحدهم علي ورقة، وكان عليها أن تنقله كما ينقل الرسم، كان القدر يسوقها إلي مصيرها رغم أنفها ورغم أنف والدها.

وخلال هذا التحول من نظام المعلمات الذي كان موجودا في الأقاليم ويقوم علي الدين والأدب العربي وما إلي ذلك إلي نظام التعليم المدني الذي يقوم علي اللغة الأجنبية وعلى الطبيعة والكيمياء.. الخ. عانت عائشة عبد الرحمن الأهوال.

وأضيف إلي معاناتها أن عليها أن تجابه الحياة المدنية الحديثة، وهي الفتاة القروية التي لم تخرج من قريتها إلا إلي المحافظات وعليها أن تعيش في القاهرة عيشة القاهريات وقد ظنت أن الحياة في الأقسام الداخلية تنقذها من هذا المأزق، ولكنها عندما عينت كاتبة بكلية البنات بالجيزة ودخلت قاعة المائدة انذهلت لما تري من موائد، تبرق عليها الشوك والملاعق والسكاكين والأطباق ولم تكن قد أمسكت بشركة أو قطعت لحما "بسكين"، فتعلت ورفضت أن تتناول الغداء في مطعم المدرسة، وتصورت أنه سيكون عليها أن تدفع ثمن ما ستأكله، وأخذت تقيم أودها بسندوتشات من الفول والطعمية والجبن حتى شكت وكيلة المدرسة وكانت متجاوبة معها، فأسرت إليها بأن مرتبها لا يكفي لسداد ثمن الوجبات ثم أنها لم تألف استخدام الشوكة والسكينة، فأخبرتها الوكيلة أن الأكل مجاني لموظفات المدرسة، واستخدام أدوات المائدة فيمكن تناول طعامها في غير ميعاد تناول الآخرين حتى تتدرب علي استعمالها.

وكان عليها أن ترد علي أسئلة باللغة الإنجليزية والفرنسية وهذه كانت قد تعلمتها كما كان عليها أن ترد علي أسئلة عن الكيمياء والطبيعة وهي التي لم تدخل في حياتها " معمل " كيمياء ولا تتصور كيف يكون ولكنها حفظت مقرر الكيمياء والطبيعة في المغناطيسية والكهرباء والحرارة، وعندما جاءها سؤال عن طرق نقل الحرارة مع ذكر خاصية الترمس في حفظ الحرارة، أجابت علي الشق الأول من السؤال بما حفظته، ولكنها وقفت عند الشق الثاني لا تفهم ما دخل الترمس، وقد حسبته البقل المعروف في سؤال عن الحرارة واستنتجت أن أهل العواصم والمدن الكبرى قد يستخدمون الترمس في ترطيب المياه الحارة علي نحو ما قرأت من استخدام الحصى ونوي المشمش لتنقية المياه العكرة.

وبعد أن خرجت من الامتحان سألت إحدى زميلاتها عن الترمس فقالت لها مندهشة أي ترمس إنه "الترمس" بضم التاء وهو جهاز لحفظ الحرارة وأظهرتها إحدى زميلاتها علي ترمس تحمله وفتحته

وناولتها كوبا من الليمون المثلج وأخبرتها أن الترمس يحتفظ بالحرارة أيضاً للشاي طوال اليوم، وعندما علم الجميع ممتحنين وطالبات بحكاية الترمس أصبحت نكتة وأصبحت صاحبتهام ماثرا للعطف لا السخرية.

في مقابل هذا، بدأت الدنيا تنبسم لها، وبدأت القاهرة تتصالح معها.

كانت السيدة لبيبة أحمد رئيسة تحرير مجلة الفتاة قد عهدت إليها بكل أعباء المجلة وتخلصت من رئيس تحريرها ومدير إدارتها وأولت إلى هذه الفتاة القيام بذلك، وكانت تكتب الافتتاحية وتختتمها باسم السيدة لبيبة أحمد، وتراجع البروفات، وتعد المجلة وتكتب معظم الأبواب ثم تأخذ المجلة من المطبعة وترسل الأعداد إلى المشتركين بعد أن تكتب أسماءهم للبريد بخط يدها وتحمل الأعداد للبريد.. الخ، وكانت السيدة تمنحها أربعة جنيهاً ونصف الجنيه.

واتصلت بالصحف، وبدأت تكتب وأعجب بها رئيس تحرير الأهرام الأستاذ أنطون الجميل، وهو نفسه كاتب وشاعر فأفسح لها مجالاً في الكتابة، ثم ضمها لهيئة تحرير الأهرام الموقرة وجعل لها مكتباً في مكتبه، وكان أبوها قد قرر أن يحل هذه المشكلة المستعصية بتزويجها لابن أحد أصدقائه.

وكانت تخطو خطوة نحو باب الجامعة ثم تعود فتتكصص حتى وجدت نفسها ذات يوم وهي مندفعة تحمل أوراقها لتتقدم إلى كلية الآداب.

ودخلت كلية الآداب منتسبة لتعود إلى عالمها القديم حيث أمجادها: القرآن الكريم والأدب العربي كما كانت مسوقة بقدرها لترتبط بالرجل الذي صورته في أحلامها، لترتبط به وليكون أستاذها ثم زوجها.

لقد تم هذا كله فدخلت كلية الآداب والتقت بأستاذها الذي أعجبت به ثم أحبته ثم تزوجته، كان ذلك تكليلاً لكفاحها القديم وبدء لمرحلة أخرى خلّت من التنغيص والتهديد بعد أن لم يعد لأبيها شأن في مستقبلها، ولعله في نهاية المطاف أدرك خطأه عندما حاول بكل قوة لكي يمنع ابنته النابغة من أن تكون "شيخة" في الحديث والقرآن، يتلمذ علي يديها أساتذة وتطلب للإشراف علي الرسائل الجامعية من جامعات بعيدة وتحل محل الإعزاز والتقدير في دوائر "المغرب" التي اعتبرتها من أساتذة جامعاتها.

لماذا بالله عليك يا شيخ أردت أن تحول دون هذا كله، وأردت لابنتك أن تكون ريفية كملايين الريفيات اللاتي قعد بهن الجهل واصبحن حبسات البيوت؟

يقف حديث بنت الشاطي، هذه المكافحة في سبيل الثقافة والمعرفة من عشرينات القرن الماضي حتى منتصفه عندما تزوجت بالشيخ أمين الخولي أستاذها ولكنها فجعت بوفاته سنة ٦٤ وعز عليها أن يأخذوه منها ليدفن في قريته "شوشاي" بالمنوفية، لقد كان حياً معها في خيالها، وحياً في بناتها، وحياً بما سجلته عنه وله في كتابها الممتع "علي الجسر".

"عليك سلام الله، إن تكن عبرت علي الأخرى فنحن علي الجسر"، وقد ظلت علي الجسر ثلاثين عاماً، قبل أن تلحق به.

- ٢ -

## وأما الثانية

فهي من بلد عربي قريب، يثبت تصرف الأب نحو ابنته فيها أن ازدرأ الأثنى هو ما يدخل فيما قاله الشاعر: "كلنا في الهم شرق".

وللوهلة الأولى، يكون من العسير أن نتفهم ازدراء الأب لبناته، بل ما هو أعجب ازدراء الأم نفسها لبناتها والضيق بهن وتفضيل الذكور عليهن، مما يخالف الطبيعة البشرية، ولكننا لو تعمقنا في دراسة المجتمع البشري لأدركنا أن التقاليد - أي العادات المتكررة التي يقبلها المجتمع جيلاً بعد جيل حتى أصبحت تقليداً، نقول إن هذه التقاليد تصبح في حالات عديدة " طبيعة " لدى الأباء والأمهات أقوى من الطبيعة البشرية التي غرسها الله في الإنسان، وإلا فبماذا نفسر أن تربي الأم الصعيدية ابنها ليأخذ بثأر أبيه المقتول، وما يكاد يبلغ الرشد حتى تعطيه بندقية أبيه، وتدفع به ليثأر له، وهي تعلم أن نتيجة ذلك أن ابنها قد يقتل، أو يحكم عليه بالسجن المؤبد، فمن أين استمدت الأم هذه الشجاعة والإصرار، إن لم يكن من التقاليد، أو كيف نفهم أن الأب القبطي الصعيدي في رواية البوسطجي ليحيى حقي يقتل كأي صعيدي مسلم ابنته عندما يتيقن من سوء سلوكها.

ونحن نعلم أن الله تعالى عندما أراد أن يختبر طاعة إبراهيم أمره بذبح ابنه الوحيد وأطاع هذا، وطبقاً لما جاء في التوراة، أخذ ابنه وجمع الحطب ليكون محرقة، وعندما أراد أن يرقده ليذبحه تراءى له ملاك وفي يده كبش وهذا هو أصل التضحية الإسلامية في عيد الأضحى بكبش. وقبل أن تتدارك رحمة الله الأمهات كانت الأمهات يقذفن بأبنائهن الرضع في الحوض الملتهب لئلا يوحشي "مولوخ".

لقد عطلت هذه التقاليد الطبيعية البشرية لدى هؤلاء، وأحلت محلها التقاليد القديمة المغروسة في أعماق أعمق المجتمع.

هذا وحده هو الذي يفسر لنا ازدراء الأب لبطلتنا - فدوى طوفان التي ولدت في نابلس في أسرة ثرية حسنة الحال، ولكنها كانت في ناحية المرأة متزمتة كأشد ما يكون التزمت فعندما دخلت المدرسة طفلة في الثانية عشرة من عمرها وأرسل إليها طفل آخر ياسمينتين أو فلتين ثارت ثائرة الأسرة وحرمت الطفلة المسكينة من المدرسة ثلاثين عاماً ! وهذا شئ إذا كان غريباً أو شاذاً فإنه في هذه الأسرة والتي كانت تمنع بناتها من الضحك في غرفهن الخاصة لا يعد شاذاً أو غريباً.

ولم تأبه الأسرة عندما وقفت الطفلة المسكينة وفي يدها صفيحة الجاز واليد الأخرى عود الثقاب لتنتحر حرقاً، فإذا كانت لم تتم هذه المحاولة، ولم تستطع أن تهتدي إلى السم الذي ينهي حياتها، فإتها انكفأت على نفسها تمضي الساعات تحرق في إبهام يدها اليسرى دون أن يطرف لها جفن.

وكان أخوها الكبير يوسف هو الذي أصدر قرار حرمانها من الدراسة، ولم يكن في قلبه رحمة، فقد كان ملاكاً وبطلاً في حمل الأثقال.

والغريب أن هذه الأسرة كانت توفد أبناءها إلى مدارس أجنبية والجامعة الأمريكية لتحصيل العلم والتزود من الثقافة الأوروبية، ولم تفكر رغم تقليديتها أن ترسلهم إلى الأزهر الذي كان قبلة الأسر التقليدية.

أما أبوها فما كان يطيقها، ولا حتى أحست نحوه بعاطفة البنوة، وكانت والدتها قد أرادت أن تخلص منها وهي جنين ففشلت وعندما ولدت عهدت بها إلى صبية كانت تعمل في المنزل، وما أن شبت الطفلة قليلاً حتى صارت أمها تعاقبها إذا أخطأت بدعك شفيتها ولسانها بالفلفل الحار وظلت تتحمل معاناة أمها وبقية سنوات طوال تراها في الحلم وجها لوجه وهي صامته "وأنا يغمرني شعور بالقهر الكتوم إحساس عنيف بالغيظ والظلم، أحاول الصراخ لأعبر لها عن ظلمها لي ولكن صوتي يظل مخنوقاً في حلقى فلا يصل إليها".

هذا عن أمها، فماذا عن أبيها؟

لم تسمع من أبيها كلمة حب مرة واحدة، حتى عندما أصيبت بالمalaria، بل إنه لم يكن يسميها باسمها، بل يقول "اللبنت" وعندما كان يريد أن يبلغها أمراً كان يستخدم صيغة الغائب ولو كانت حاضرة فيقول لأمها قولي لللبنت تفعل كذا بينما كانت بقية أفراد الأسرة تدعوها لشحوبها وهزالها "الصفراء" بينما هي في براءة الأطفال تدعو الله في ليلة السابع والعشرين من رمضان أن يعوضها بخدين موردين ينقذانها من التجريح.

في هذا الجحيم عاشت فدوى طوقان، وكان يمكن ألا يسمع باسمها أحد، فما أكثر الضحايا المجهولة من النساء "بالملايين من الخديجات والزينات والفاطمات والعائشات، من اللاتي عشن مقهورات ومتن وفي النفس غصة، ولم يسمع بهن أحد".

ولكن الله تعالى رأف بحالها وأرسل إليها ملاكا في شخص أخيها إبراهيم الذي كان يطلب العلم في الجامعة الأمريكية بعيداً عن الأسرة، فلما أتم دراسته عاد إليها، وكانت عودته إنقاذاً لفدوى فبقدر ما كان أخوها يوسف قاسياً غشوماً، بقدر ما كان إبراهيم رقيقاً عطوفاً كريماً يفهم أخته المسكينة ويلمس آلامها الدفينة ويلحظ شغفها بالعلم والمعرفة التي حرمت منها كانت علاقة حب وحنان وعطف، كانت أشبه بالأمطار التي تروي الأرض الجافة التي شققته شمس حامية، لقد بدل إبراهيم جحيم حياتها نعيماً، وأوحى لها بالأمل وفتح طاقاتها الكامنة بعد أن علمها النحو والإملاء والعروض ووثق علاقتها بالشعر التي كانت تود أن تعالجه وخرج بها إلى العالم الرحب عالم الأدب، وعالم السياسة وعالم القضية الفلسطينية فإذا هي شاعرة فلسطين وإذا شعرها يتفرق آونة كالنسيم العليل، ويعصف آونة كعصف الريح وإذا هي قد تخلصت من القهر والانكسار والذل والانطواء تخرج إلى المجتمع وتقابل جيهان السادات وأنور السادات وأعور بني إسرائيل وجنرالها موشيه ديان وتتغمس في الخطاب السياسي وفي الجو الأدبي تثبت في هذا كله كفاءة أو إضافة وتقف مع شعراء فلسطين محمود درويش وسميح القاسم وإذا هي من أبرز المحامين والمدافعين عن قضية بلادها، فلسطين.

لقد كان كل هذا مكنوناً ومكتوباً تحت غشا وات الظلم والقهر، فما أن تفتحت لها طاقة حتى تفجرت مواهبها كالشلال.

لقد ظلت فدوى طوقان حاملة جميل أخيها العزيز الشفيق الذي بدل جحيمها جنة، وعندما مات رثته بأجمل مما رثت به الخنساء أخاها صخرأ.

لقد قصت فدوى طوقان قصة حياتها في كتابها باسم "رحلة جبلية" وما كان أقساها من رحلة، وما كان أشق من أن تصعد من السفح المظلم إلي القمة المضيئة، ولكن أهم من هذا أنه قدم لنا مثلاً لقهر المرأة ولما يصل إليه القهر من كبت للمواهب ما لم ترزق حظاً استثنائياً كما كان حظ فدوى طوقان.

- ٣ -

### وأما الثالثة

هذه الثالثة كانت أعجبهن ذلك أنها لم تدخل مدرسة أو كتاباً في طفولتها فقد انتقلت أسرتها إلى القاهرة حيث لا توجد الكتاتيب، وإنما المدارس وأهملت أمها إدخالها أي مدرسة عندما نصحوها بذلك، وكان عليها أن تتعلم القراءة والكتابة بطريقة ذاتية دون معلم، وقد تمكنت من هذا لأنها كانت تجلس بجوار شقيقها الذي يكبرها بعشر سنين وكان طالبا بمدرسة ثانوية وكان يقرأ بصوت عال مقررات المدرسة في الأدب العربي من

قصائد وكانت هي بجانبه، فكانت تحفظها بمجرد سماعها، وتوسلت إلى شقيقها أن يعلمها الحروف الأبجدية فلم تكد تتعلم ذلك حتى أخذت تقارن ما حفظته من الذاكرة على القصيدة المكتوبة وبتكرار ذلك عرفت قراءتها وكأنها شامبليون الذي توصل لمعرفة الهيروغليفية بمقارنة حروفها بالحروف اليونانية في حجر رشيد وكانت تعتقد أنها لا تستطيع أن تقرأ غيرها حتى وقع في يدها كتاب "قصة حسن الصائغ البصري" فاستطاعت أن تقرأ عنوانه وأخذته واكتشف أنها تستطيع أن تقرأه، أي أن باب القراءة الفسيح قد انفتح أمامها، فبدأت تقرأ بعض القصص الشعبية وألف ليلة وليلة وقصة عنتره.. الخ، ثم انتقلت إلى دواوين الأدب فقرأت شعر عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ومجنون ليلي، الإرادة والذكاء كانا مفتاح مسيرة نبوية موسى وهما اللتان مكناهما من التعليم بهذه الطريقة، بل وتمكنت من أن تكتب الشعر في طفولتها ولما لم تكن تعرف النحو فقد أخطأت في إعراب كلمات، ولما شاهدها قريب لها أعجب بها وقدم لها الجزء الأول من كتاب النحو لتتعلم قواعد اللغة والتهمته التهاماً، كما بدأت تقرأ القرآن الكريم.

وكان والد نبوية موسى ضابطاً في الجيش المصري ذهب إلى السودان، ولم يعد، واعتبر قتيلاً أو أسيراً أو مفقوداً فقررت الدولة لأسرته معاشاً، وكانت أمها سيدة لا تحب السيطرة فلم تتحكم في تربية طفلها (ولد وبنت) وتركت لهما قسطاً كبيراً من الحرية، وكانت تحبهما حبا جما، وقد اشترت لنبوية في طفولتها مصاعاً كأنما هي عروسه.

وظمحت نبوية موسى إلى دخول المدرسة السنية، وكان عليها أن تتعلم مقرر الحساب وهو جمع وطرح وضرب وقسمة الأعداد والكسور الاعتيادية وكان سنها وقتئذ ١٢ سنة فأحضرت كتاب الحساب وعكفت عليه واكتشفت أنها موهوبة في الحساب وفي الوقت نفسه كان عليها أن تتعلم أوليات اللغة الإنجليزية وهذا أيضاً ما توصلت إليه بملازمتها لأخيها واختلاسها منه فتات ما كان يعلمه، وعندما أعدت نفسها أعلنت عزمها على الالتحاق بالمدرسة، ولكن أمها رأت في هذا خروجاً على قواعد الأدب والحياء ومروقا من التربية والدين، فسرقت خاتمها وذهبت إلى المدرسة وكتبت استمارة التحاق بها وختمتها بختم أمها.

المشكلة كانت في الخط، فقد رأينا أنها تعلمت القراءة بطريقة ذاتية ولكنها لم تمارس الكتابة وكان القلم يلعب بها بدلاً من أن تلعب به وكانت إجاباتها إجابة صحيحة ولكنها مكتوبة بخط الأطفال، ولكي تغري إدارة المدرسة بقبولها أعلنت أنها ستدفع المصروفات، وكان يمكن أن تدخلها بدونها، فقبلوها وكادت تطير فرحاً وعادت إلى المنزل تحمل البشري لأمها التي حاولت ثنيها ولكن نبوية أكدت أنها إذا لم تسمح لها فستدخل "داخلية" فخافت أمها وقبلت، أما أخوها فأعلن أنه سيقاطعها إذا دخلت فقالت إن هذا سينقص من أقراني واحد، ولا ضير في ذلك، فقاطعها فعلاً لمدة سنة ولكنه عاد.

دخلت نبوية موسى المدرسة السنية فدخلت عالماً جديداً عالماً كان يقف على قمته المستر دانلوب مستشار التعليم الإنجليزي العتيد، وكان نصف المدرسات إنجليزيات والناظرة إنجليزية، ولكن كان من ضمن الأساتذة فطاحل أمثال الشيخ حمزة فتح الله، لم تستخذ أمام هذا العالم العجيب، لأن قوة إرادتها أنقذتها، بل جعلتها تعارض ما لا يعجبها كما حدث في مادة الصرف لأنها كانت ترى أنها تفهم وتقرأ وتكتب دون حاجة إليها، ولما عقد أستاذها امتحاناً فإنها بدلاً من الإجابة ردت بثلاثة أبيات فيها:

رمتني صروف الدهر لا در دره  
ولا خير في فعل إذا رمت صرفه  
فإن تكسروا للفعل عينا فإني  
كسرت ذراع الفعل عمداً وأنفه  
وأن كان معتلاً فلسست طبية  
دعوه، دعوه عله يلق حتفه

عن هذه الجراءة، والمقدرة من فتاة هذه ظروفها، وفي سن ١٣ سنة توضح لنا أن ملكات النفس وخلالها أهم من أي شيء آخر من أجل هذا نجحت نبوية موسى في كل سنوات دراستها وكانت عادة الأولى.

واصطدمت نبوية موسى مع ناظرة المدرسة السنوية التي ظنت أنها تحرض الطالبات على كراهية الإنجليز - ولم يكن هذا صحيحاً - فعندما نجحت في دبلوم المعلمات وكانت الأولى كان يجب أن تعين مدرسة في السنوية، ولكن الناظرة الإنجليزية قالت أنها لا تسمح لمكان واحد أن يضمها ويضم نبوية موسى إلا القبر وهكذا عينت مدرسة بمدرسة عباس الأميرية بمرتب ستة جنيهات.

واكتشفت أن زملاءها من الرجال يتقاضون أثنى عشر جنيهاً فلما سألت عن سبب هذه التفرقة قيل لها إنهم حصلوا على البكالوريا، وعقدت العزم على أن تنال البكالوريا وملاّت استمارة الدخول وكانت هي الوحيدة التي تجرأت على ذلك وحاول المستر دانلوب نفسه أن يثنيها وأن يخوفها من البرنامج، فلم تأبه، ودرست البرنامج وفي سنة ١٩٠٧ دخلت الامتحان ونجحت وكان ترتيبها ٤٣ من ٢٠٠.

حدثت ضجة كبيرة لأنها المرة الأولى التي تنجح فتاة في البكالوريا وكتبت عنها الصحف مراراً وتكراراً، ولم تنجح مصرية بعدها في امتحان البكالوريا إلا سنة ١٩٢٨، بل إنها هي نفسها وصفت هذا " لو إني فتحت فرنسا لما كان لاسمي رنة أشد مما كان بعد تلقى البكالوريا".

وكان تعليم البنات محدوداً ففي يونيو سنة ١٩٠١ نجح في شهادة الابتدائية لأول مرة ثلاث تلميذات هن ملك حفني ناصف، وفيكتوريا عوض، وانجرا بلنتر وفي أكتوبر سنة ١٩٠١ فتح قسم المعلمات ودخل فيه هؤلاء الثلاثة في السنة الأولى وفي سنة ١٩٠٣ نجح في امتحان دبلوم المعلمات ملك حفني ناصف وفيكتوريا عوض وعينتا في سنة ١٩٠٣ مدرسات بمدرسة السنوية، وفي هذه السنة ١٩٠٣ دخلت نبوية موسى قسم معلمات السنوية وكان البرنامج ثلاث سنوات وكان مجموع الطالبات في السنوات الثلاث ١٥ طالبة وكان مستوى الدراسة مرتفعاً، وكان الطالبات يتكلمن بالإنجليزية أفضل من الحاصلين على الشهادات الجامعية، وكان منهن من تتكلم الإنجليزية كأحدى بناتها، كما كان مستواهن في اللغة العربية مرتفعاً وكان هذا يعود إلى ارتفاع مستوى التدريس، فالتى كانت تدرس الإنجليزية مس كارتر ظلت في مصر ٣٨ سنة وقد بدأت كمدرسة حتى أصبحت كبيرة مفتشات اللغة الإنجليزية، ومن الغريب أنهم في بعض الحالات كانوا يدرسون اللغة العربية باللغة الإنجليزية فيكتبون عن كان وأخواتها Can & Sisters ولم يكن هذا هو الأدب المألوف، إذ كان يدرس لهن العربية شيوخ من الأزهر أو من دار العلوم وكانت الوزارة تريد إحلال النساء محل الرجال في تعليم البنات فعينوا نبوية موسى مدرسة لغة عربية وكان هذا المنصب حكراً لخريجي دار العلوم أو الأزهر، فجن جنونهم وكتبوا شكوى للناظرة بأنها لا تستطيع تدريس هذه المادة وناقشتها الناظرة فقالت لها نبوية إن أسلوبها أفضل من أسلوبهم ولو كان لديهم نقد فليقدموا تقريراً عن ذلك ولكنهم رفضوا تقديم مثل هذا التقرير فألزمت الناظرة نبوية موسى أن تقدم هي تقريراً ينتقد أسلوبهم، فكتبت تقريراً كشفت فيه عن سوءات طريقة الصرف والنحو المتبعة، وأرسلت الناظرة التقرير إلى وزارة المعارف، وكان وزيرها وقتئذ سعد زغول وعندما أطلع عليه سر وأمر بطبعه وتوزيعه على جميع مدارس البنات فأسقط في يد الناظرة والمدرسين،

ولكنهم أخذوا يتربصون بها، وكانت قد بدأت تكتب في الصحف، فاتصلوا بالناظرة وأكدوا لها أنها تحرض المصريين على كراهية الإنجليز، وقدموا لها أعداداً من المجلة التي كانت تكتب فيها، وذهبت بها الناظرة إلى وزارة المعارف ولما أطلع سعد زغلول عليها أعجب بها، فخرجت الناظرة بعد أن رأت أن هذه المكيدة الثانية قد جعلت الوزير يعجب بها، بل إن هذا أدى إلى أن يطلبها رئيس الوزراء محمد باشا سعيد لتدريس اللغة العربية لبناته، وحاولت التملص لأنها كانت تعتبر التدريس في المنازل سبه ولو لبنات رئيس الوزراء فما أبعدهن عن اليوم، وأين هذا من تكالب المدرسين الآن على الدروس الخصوصية؟.

فماذا حدث بعد ذلك؟!

تضايقت نبوية موسى من القيود والبيروقراطية، وحدث أن محمد باشا محمود أسس مدرسة للبنات في الفيوم وعين لها ناظرة إنجليزية، ولكنه اختلف معها فتركته، وعندئذ تذكر محمد باشا محمود اسم نبوية موسى وطلبها لأن تكون ناظرة للمدرسة وقبلت هي هذا العرض متصورة أن مدرسة تخضع لمجلس المديرية تكون أكثر حرية من مدرسة تخضع لوزارة المعارف فقدمت استقالته، ولكن الوزارة رفضت قبولها ونشأت أزمة، ولكنها تمسكت.

وشمرت نبوية موسى عن ساعد الجد ونفخت روحاً جديدة في المدرسة، ولكنها لم تلبث أن تعرضت لعدد من المتاعب، فقد وجدت مثلاً أن أحد شيوخ دار العلوم يقوم بتدريس "التدبير المنزلي" ولم يكن يحسن بالطبع هذا الفن، فغيرته وأعطته برنامجاً في اللغة العربية وأحلت محلة فتاة، والغريب أن هذا المدرس بدلاً من يسر بذلك أعلن عليها حرباً شعواء لأن هذا حرمة فيما يبدو من تذوق الأطعمة! واتضح لها أن إدارة المجالس البلدية أسوأ من الوزارة ولهذا فلم يكذبوا لطلبونها لتكون ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة حتى قبلت وانتقلت إلى المنصورة، ولكنها لم تجد الحال أفضل، بل إن التعقيدات أوجدت أزمة ما بين وزارة المعارف ومجالس المديرية ولأن نبوية موسى كانت متشددة في ملاحظة الآداب والبعد عن الشبهات سواء بالنسبة لها أو للطلبات فقد أثارت غضب معظم أعضاء المجالس ومديريها حتى قرروا بإجماع الأصوات إلغاء المدرسة حتى يخلصوا منها، وعلمت هي بنيتهم وأخبرت بها المستر دانلوب، واستبعد مستر دانلوب هذا، فلما قرر المجلس إلغاء المدرسة " بإجماع الأصوات " وأبلغته القرار فاتصل بمستشار الداخلية الإنجليزية الذي ثار وطلب قرار الإلغاء فأرسل إليه فشطبه وأمر بإعادة المدرسة فعادت المدرسة " بإجماع الأصوات ".

ومع أنها انتصرت في كثير من هذه المؤامرات إلا أنه لم يكن من الطبيعي أن تواصل الانتصار إلى النهاية، وقد ظهر هذا عندما قررت الوزارة نقلها لتكون وكالة معلمات بولاق.

وكان من أغرب ما حدث لها أن هذا التعيين كان يتطلب أن تعرض على القومسيون الطبي للتأكد من قوة الأبصار، وكانت نبوية موسى قد سقطت في هذا الاختبار منذ خمس سنوات، فذكرت ذلك لمستشار التعليم الذي لم يهتم وأنا أمرها أن تذهب إلى القومسيون فذهبت وذهب معها مس الجود ووجدت ثلاثة أطباء إنجليز أشار أحدهم إلى العلامة الأولى وسألها فقالت هل نظن أنني أراك أنت شخصياً؟ حتى تسألني على العلامة فقال عجيب إلا تريني قالت نعم فصرفها، ولكن مس الجود لم تخرج معها وظلت برهة مع القومسيون وبعدها قيل أنها نجحت في القومسيون وعينت وكالة لمدرسة معلمات بولاق!

ولكنها رفضت فحاصروا مدرسة المنصورة بفريق من الجنود الإنجليز الذين منعوا أي واحد من دخول المدرسة وفي الوقت نفسه أخرجوا كل البنات حتى ظلت هي وحدها في المدرسة لثلاث ليال، ووصلت بهم الجراة إلى اتهامها بالجنون وتحويلها على طبيب إنجليزي، ولكن الرجل لم يجد جنونا واتصل بالمستشار المستر دانلوب الذي قال له إنها ضد الإنجليز فرد الطبيب لماذا لا تعتقلونها وقد اعتقلتم الكثير من المصريين فقال له إنها ذكية جداً ومحتاطة كل الاحتياط، فقال الطبيب إذا كان ذلك كذلك فليس بها جنون، ولم يجد المستشار حيلة إلا التوسل إلى أخيها وكان قاضياً، ورجاءه مستشار الداخلية الإنجليزي إقناع أخته بقبول الوظيفة، وقال لها أخوها أن مخالفة ذلك يسئ إليه، فقبلت مرغمة.

الغريب أن مدرسة معلمات بولاق التي عينوها فيها كانت مغلقة وكانت السلطة العسكرية قد استولت على بنيانها، ولكن السلطة تخلت عنها، وفتحت المدرسة أبوابها سنة ١٩١٥م، وكان على نبوية موسى أن تكون وكيلة، مع ناظرة إنجليزية، فلم يكن هناك حد للمضايقات التي كانت نبوية موسى تقف أمامها موقفاً قوياً وصلباً، وعندما تقرر أن يزور السلطان حسين كامل مدرسة معلمات بولاق أراد مستر دانلوب منها أن تخلع ملابسها السوداء، كما أوفدوا إليها من يعلمها كيف تحيي السلطان، وكان ردها هو الرفض، وأنها ستحيي السلطان التحية المناسبة وتأمروا عليها، ولكنها كانت أذكي منهم بحيث أن السلطان لما زار المدرسة كان فصلها هو الفصل الذي أعجبه وقال لمستر دانلوب ما الذي يمنع هذه السيدة أن تكون ناظرة، وأهداها ساعة يد من الماس بسوار ذهبي.

وكتبت إلى المستشار خطاباً صريحاً، يندد بكل سلبيات الدراسة، وأنها تعتبر هذه الخطاب استقالة، وكان مستر دانلوب يعلم أن هذا لو وصل إلى السلطان لسائله، فأسرع بتعيينها ناظرة مدرسة معلمات الوردان وتكرر في الوردان ما حدث في مدارس سابقة من احتكاكات بموظفي الوزارة أو المفتشين الإنجليزي كان يعينوا ضابطة فرنسية للتجسس عليها أو يرسلوا إليها معلماً شاداً معروف بخلافه مع كل ناظر أو ناظرة، ولكنهم فشلوا، وكانوا يوفدون معلمين إليها ويؤكدون لهم أنهم إذا اشتكوا من الناظرة فإنهم سيلغون النقل ويعيدوهم وظائفهم، ولكن كياسة نبوية موسى أفسدت عليهم مؤامراتهم.

ولم تكن نبوية موسى تؤمن بالإضرابات، ولهذا فعندما أضربت كل المدارس تأييداً لثورة ١٩١٩ أقتعت المدرسين والطالبات بأن مصلحة الوطن هي في تخريج طالبات نابهاً متعلمات، وهكذا أضربت كل مدارس الإسكندرية، إلا معلمات الوردان.

لم يكن طبيعياً أن تستمر نبوية موسى في عملها التربوي كناظرة موظفة لأنها كانت بحكم شخصيتها القوية وتمكنها من مادتها وإيمانها بالتعليم لا تسمح لأي قوة أن تمس ذلك.

والغريب أنهم كانوا ينقمون منها أن أسلوبها التعليمي يجعل طالباتها تفهم المادة تماماً بحيث يتفوقن على طالبات المدارس الأخرى وكان من الضروري التخلص منها، وكان التبرير الوحيد لهذا الموقف هو أنها كانت الناظرة المصرية الوحيدة، وكل الناظرات إنجليزيات وكانت مدرستها هي الأولى دائماً.

ولكن نبوية موسى لم تكن تنجو من حفرة حتى تقع في "دحدورة" كما يقولون فقد أرادت السيدات اللاتي اشتركن معها في تأسيس المدرسة تحويلها إلى مشغل ! ورفضت نبوية موسى وقامت بينها حرب ضروس انتصرت فيها واضطرت فيها أن تنقل أثاث المدرسة إلى بيت استأجرته واضطرت إلى تتحايل بكل الطرق حتى تخرج سكانه، ولم تبدأ العمل حتى لاحقتها مناورات الوزارة، وكانت لا تزال على ذمة الوزارة وفي أجازتها المفتوحة، وتوقعت أن تفصلها الوزارة، ولكنها لم تكن معنية بهذا، ولكن بإغلاق المدرسة، ولهذا

توصلوا إلى استعادتها مرة أخرى، ولكن كمفتشة التعليم الأولى بالإسكندرية وبعد فترة عینوها كبيرة المفتشات وطلبوا منها إغلاق مدرستها.

أثرت نبوية موسى الاستقالة من الوزارة وتحررت من قيود الوظيفة وبدأت تركز جهودها في مدرستها التي أطلقت عليها أولاً ترقية الفتاة ثم فيما بعد بنات الأشراف.

ومع أن نبوية موسى ضحت بكل ثروتها في تكوين مدارس الأشراف، فإنها عندما ماتت لم تترك إلا مدرستها في الإسكندرية التي تبرعت بها للوزارة، ومنزل متواضع بحي الشاطبي وسيارتها الخاصة.

وكان من دلائل همتها أنه كان بين تلميذاتها تلميذة نابغة هي سميرة موسى، وقد أصبحت فيما بعد إحدى عالمات الذرة وأطلقوا عليها "مدام كورى مصر"، وأرادت سميرة موسى بعد أن نالت شهادة الكفاءة وكانت الأولى أن تترك مدرستها لعدم وجود معمل بها، وبدأت في تحويل إدارتها إلى مدرسة الأميرة فوزية، فما أن علمت بذلك نبوية موسى حتى أرسلت إلى والدها الذي جاء واعتذر لها بحاجة سميرة إلى معمل فقالت نبوية: "شرف للمدرسة أن سميرة طالبة بها، ولذلك فقد قررت المدرسة إنشاء معمل من أجل عيون سميرة".

وإذا كانت المشكلات التربوية قد انتهت بتكوينها لمدارسها التي تحققت فيها سياساتها فإن المشكلات السياسية أساءت إليها فقد كانت نبوية موسى سيدة جادة لا تؤخذ بالحماسات والشعارات وتكره "الديماجوجية"، ولذلك فلم تؤيد حزب الوفد، وعندما وصل الوفد إلى الحكم سنة ١٩٤٢م، بادر بحرمان مجلة الفتاة من حقها في ورق الطباعة حتى احتجبت عن الصدور، كما قامت بغلق مدارس بنات الأشراف، بل وقبض عليها وقدمت للمحاكمة العسكرية، فلما قضى ببراءتها قامت حكومة الوفد بإغلاق مطبعتها ثم اعتقالها بتهمة انتقاد النحاس باشا ووضعت في السجن فترة ثم أفرج عنها.

وهكذا كانت نهاية هذه المناضلة النبيلة التي كرست كل حياتها لخدمة تعليم البنات والنهضة بهم وخاضت " ملحمة " من المعارك مع بيروقراطية وزارة التعليم، وتحيز المستشار الإنجليزي بوزارة التعليم، ومعارضة الرأي العام التقليدي لتعليم المرأة، لقد قاومت نبوية موسى كل هذه القوى كما يقاومها فارس حقيقي لا يهن، ولا يضعف، ولكن يموت ولا يستسلم\*.

## خمسة أفكار يتقدم بها الإسلام إلى الغرب

### (١) التصور الإسلامي للألوهية:

تتفق البحوث والدراسات منذ العصور القديمة على أن قضية "الألوهية" كانت شغلاً شاغلاً للناس سواء كان الأمر في مصر، أو العراق أو لدى الأوروبيين القدامى، ويتلاقى مع هذه النتيجة دراسات الانثولوجيا، كما تتفق دراسات المفكرين وعلى رأسهم أوجست كونت الذي جعل المرحلة الدينية، هي المرحلة الأولى من مراحل تطور المجتمع البشري.

لم يكن من المستطاع لإنسان العصر القديم أن يتجاهل قضية الألوهية، ولكنه أيضاً عجز عن التصور السليم لها، لأن درجة تقدمه حالت دون ذلك، ومن ثم كانت الوثنية هي التعبير الأول لها في الشرق كما أبدع اليونانيون ألتهتهم الخاصة وأسكنوها "الأوليمب".

وعندما ظهرت المسيحية وبشرت بإله واحد كان هذا أيضاً أصعب مما يمكن أن يستوعبه المجتمع البشري الغارق في التعددية الوثنية، فظهرت صيغة ثلاثية - على غرار ما كان موجوداً في الديانات القديمة خاصة مدرسة الإسكندرية المتأثرة بالفكر اليوناني، وإلى حد ما بالتراث المصري، ومن هذا الباب شقت المسيحية طريقها، ولكن ذلك أضفى عليها طبيعة "لاهوتية" وأصبحت قضية الأقانيم الثلاثة لغزاً لا يقوى على حله إلا رجال الأكليروس المتخصصون وكان هو السبب في انشقاقات وحروب ومآسي عديدة.

وكان بنو إسرائيل استثناء، لأنهم من أقدم العصور آمنوا بإله واحد، ولكن المشكلة إن هذا الإله الواحد كان إلهاً خاصاً ببني إسرائيل وقد أهال منات الامتيازات عليهم وجعلهم شعبه المختار، وأسلمهم أعناق الشعوب الأخرى، وتملكهم الغرور بحيث استعلوا، ليس فحسب على الشعوب الأخرى، بل حتى على إلههم الخاص، ووصل الصلف ببعضهم أن قالوا إنه ليس هو الذي اختارهم، ولكنهم هم الذين اختاروه، وإن إسرائيل صرع ملاك الرب، ومن ثم حمل هذا الاسم.

وبالطبع فإن مثل هذا الإله، وهذا الشعب لا يعيننا في قضية عن البشرية إلا إذا سلمنا بأول وأضيق صور العنصرية "وسيادة جنس على بقية الأجناس".

ولم يكن الفلاسفة، وهم الذين يعتد بهم في الأمر - بمبعدة عن هذه القضية الفكرية الهامة وقاد المنطق السليم معظمهم إلى الإيمان بإله وخلصوا بالطبع من كل صور "التجسيم" التي كانت قوام الوثنيات، وبهذا لم يعد لهذا الإله "جسم" واتفقوا أيضاً على أنه يمثل القدرة والكمال، وسار بعضهم خطوة فقال أنه خلق الكون والإنسان..، ولكنهم رفضوا بإصرار السير بعد ذلك. لأن أي خطوة كانت ستقودهم إلى العالم الغيبي للإله الذي يغرق أفكارهم ويستحوذ عليها، فكان الله بالنسبة لأرسطو حلاً منطقياً، ولما استبعدوا أن يكون له جسم ما، تغلب عليه الطابع التجريدي بحيث أن الفلاسفة رأوا أن دور "الله" قد انتهى بمجرد أن خلق الكون والإنسان، وأنه تركهما كما يترك الساعاتي القدير الساعة لتدور بانتظام، وبهذا خلصوا من عالم "الغيبية" وبحارها المتلاطمة التي تحول بينهم وبين طرائقهم في البحث.

وشيئاً فشيئاً توارى الله أمام خضم الدراسات والمناهج العلمية والوضعية.. الخ.

ومن كمال البحث أن نشير إلى فكرة الألوهية في الديانات الهندية والصينية، ولكننا نعتزف بأن ما لدينا من مادة لا يمكننا من استخلاص النتائج بشكل ثابت.

\* \* \*

ليس من المبالغة أو التحيز أن نقول إن الإسلام قدم أكمل تصور للألوهية، فالإسلام يرى أن الله تعالى هو خالق هذا الكون كله بما فيه من نجوم ومجرات وشموس.. الخ، وإنسان وحيوان.. الخ، دون أي تفرقه وأنه خلقه بقدر وأعجاز وحساب دقيق، وهو يستبعد كل آثار التجسيم أو أن يكون لله صورة أو شكل أو يمكن لأحد أن يراه.

وأن كانت الضرورات الأسلوبية التي تتفق مع إعجاز القرآن الكريم من ناحية، والتي تلحظ مستويات الفهم الإنساني جعلت القرآن يستخدم – وهو بصدد الحديث عن الله – ألفاظ "يد" أو "عين" أو أنه يجلس على العرش أو انه ينزل إلى السماوات الدنيا.. الخ، ولكن هذا نوع من المجاز، الذي استخدمه بالنسبة لمجالات أخرى، مما يؤكد مجازية التعبير.

وهذه نقطة هامة لأن القرآن الكريم يستبعد أي شائبة لتجسيم، ويتفق مع الفلاسفة في الصفة التجريدية لله، ولكن القرآن يختلف عن الفلاسفة في أنه يرى أن ليس مما يتعارض مع هذا التجريد أن يكون الله حياً، بصيراً، سمياً، لأنه لو حرم من هذه لما كان إلا فرضاً فلسفياً، وقد استعظم المعتزلة أن ترد تعبيرات اليد، واللسان والعين في صدد الحديث عن الله، ولم يتصوروا أن يأتي زمان كالعصر الحديث يمكن أن يكون هناك كلام دون لسان. وروية دون عين وعمل دون يد.

ومنطق القرآن أنه من المستحيل أن يكون هناك إله للكون وللإنسان دون أن يكون هو نفسه حياً، أو بمعنى أدق، أصل الحياة، وأنه من المستحيل أن يصل إبداعه سواء في حركة الأكوان أو جسم الإنسان إلى هذه الدرجة من المعرفة دون أن يكون أصل الحياة والقدرة والقيم والمعرفة، وقل مثل ذلك بالنسبة لبقية القيم من خير، أو حب أو جمال أو عدل.

أما كيف يمكن أن تتفق الأضداد من تجريد مع هذه الصفات الحية / العملية، فإن القرآن يوضح بكل صراحة ودون مواربة أن العقل البشري يعجز عن التوصل إلى "ماهية" الله، وذات الله، وأن هذا العجز لا يعد نقصاً في العقل البشري وإنما هي طبيعة الأشياء، فالإنسان وأن كان أبرز الكائنات، أو حتى الكائن الوحيد، وهو فرض جدلي تماماً، فإنه لا يشغل إلا كوكباً صغيراً لا يعد شيئاً مذكوراً في عالم الكون، وعقله مرتبط بطبيعة هذه الكواكب، وأن جهل الإنسان بشيء أو عجزه عن التوصل إليه لا يعنى أبداً عدم وجود هذا الشيء ما دام ما يتصف به الله لا يخالف في شيء أصول الأشياء وبداهة العقل.

وهناك أمران آخران يقررهما القرآن الكريم :

الأول: إن الإنسان، وإن لم يكن إلا مخلوقاً من ملايين المخلوقات، فإن الله تعالى جعله "خليفة" له على الأرض، وعلمه الأسماء كلها، وهو تعبير قرآني يقصد به مفاتيح المعرفة والثقافة ويختلف عن التعبير التوراتي الفج، كما ينفرد القرآن بإبراز نقطة هامة هي أن الله تعالى أمر الملائكة أن تسجد لآدم.

وما من تقدير لكرامة الإنسان يمكن أن تساوى هذا..

والأمر الثاني: إن الله تعالى وإن كان قديراً على أن يفعل ما يشاء بما يجاوز قدرة استيعاب عقل الإنسان، فإن الله لكي يهيب للإنسان التعايش على كوكبه، وفي مجتمعه، وضع مبادئ وأسس يسير عليها الكون والمجتمع البشري، وألزم نفسه كراماً منه، بها بحيث يسير الكون على المبادئ التي يكشف عنها الله، يوماً بعد يوم، كما يلتزم بها المجتمع البشري.

وهناك نصوص في القرآن الكريم تعطي هذا المعنى بقوة ووضوح مثل: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ { ١١ المنافقون} وكذلك ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ { ١١ الرعد} فهنا نرى أن الله تعالى ربط مشيئته الإلهية بالأجل، ويعمل الناس.

\* \* \*

في النهاية، فيغلب دائماً، خاصة بالنسبة للإنسان الأوربي – أن يقول وما جدوى الإيمان بالله، خاصة بعد ما ذكرت من ارتباط المشيئة بالأسباب ؟

الإيمان بالله يمكن أن يكون نقطة البداية وغاية النهاية في الحياة الإنسانية، وهو الذي يجعل للحياة محوراً تدور عليه، وغاية يسعى لها، والله تعالى باعتباره أصل القيم فإنه يرسى مبدأ الموضوعية ويجعله الأساس، ويربط الذاتية بها، وهو الذي يلهم الإنسان القيم، ويعطي هذه القيم الصفة الموضوعية، فالحق المستمد من الله تعالى يختلف عن الحق في فهم البشر، إذ يجعله الفهم البشري علاقة حقوق وواجبات تخضع لكل ما يخضع له فهم الحقوق والواجبات من مؤثرات ذاتية وأكاد أقول أنني لا أجد مرادفاً في اللغات الأوربية لكلمة "الحق" المصدرية والبعيدة عن نسبية الحقوق والواجبات التي أشار إليها القرآن وجعلها الأساس الذي أقام عليه السماء والأرض.

وقد يقرب إلى الذهن أن نقول أن المؤمن بالله يكون كعاشق لمحبوبة بلغت غاية الجمال يحس أعظم سعادة وهو يحدق فيها وإذا لامست أصابعه أصابعها تنتابه رعدة ما تشبه الكهرباء.

هذه النشوة التي يحسها العاشق، يمكن أن يحسها المؤمن عندما يستحضر في ذهنه الكمال الإلهي، والحكمة المطلقة، والجمال المبهر، فيحس بالأمن والأمان والرضا ويشبع كل التطلعات الروحية والنفسية.

إن أهمية الإيمان بالله هي أنه هو وحده الذي يحقق الإشباع الذي لا يمكن أن تحققه الملاذ العادية، فالأكل والشرب والاصطياف والرحلات، والعلاقات الجنسية كلها وأن كانت دون ريب تشبع حاجات عديدة ويمكن أن تجعل الحياة أكثر جمالاً ومتعة، إلا أنها تقضى على نفسها بنفسها ويأتي وقت وقد تغلب السأم، وعندئذ تظهر هذه الصور فقيرة مكررة، لأن اللحظة التي يتمتع بها ويستحوذ عليها هي اللحظة التي تنتهي فيها وتتلاشى هذه النشوة.

وقد يمضى العاشق لحظات طويلة من المتعة والنشوة وهو ينظر إلى وجه حبيبته ويسعد بالقرب منها، فإذا تزوج بها، انتهى هذا السحر لأنه أستحوذ عليها، والشيء الذي لا يمكن للإنسان أن يستحوذ عليه لأنه أعظم منه هو الله، ويظل الإنسان الذي يستحضر الله في قلبه سعيداً بهذا الاستحضر دون أن يكون في هذا شيء من الوهم أو الخرافة لأن العاشق الذي ينتشي بروية حبيبته ثم يفقد هذه النشوة بالزواج مثلاً ينم على أن في الإنسان شيء يجعل النشوة إنما تبقى وتستمر لأن الإنسان لا يمكن أن يستحوذ على مصدرها، وهذا ما لا يتأتى إلا لله تعالى وهو ما يميز الإيمان بالله عن علاقة العاشق لمحبوته.

وقد يعطى الاستماع إلى موسيقى باهرة، أو قراءة شعر مؤثر الأحاسيس التي تسمو بالنفس، ولكنها تظل بعد هذا دون فكرة الله تعالى بمراحل، وما توحى للنفس الإنسانية به.

ومن الناحية الاجتماعية، فإن الإيمان بالله يضيء على السببية عقلاً وإرادة وحكمة وغاية، وهذا شيء بعيد كل البعد عن كلمة "الطبيعة" التي احلها الأوربيون محل الله، دون أن يخطر في بالهم هذه الطبيعة التي أحكمت الخلق في جسم الإنسان. وفي تكوين الكون الخ، هل لها عقل أم لا، فإذا كان لها عقل فإن الطبيعة تصبح مرادفاً فجاً فقيراً لما يقول عليه المؤمنون "الله" وإذا لم يكن لها عقل، فإني لها أن تبعد كل هذا الأحكام والدقة والكمال والعقول.

وبالنسبة للقيم الاجتماعية، فإن الإيمان بالله يمثل "الموضوعية" ويقضى على "الذاتية" التي هي آفة الفكر البشرى والتنظيم الاجتماعي بحيث تكون كرامة الإنسان مثلاً متاحة للفقير وللغنى وميسرة للأسود كما هي للأبيض، وهذا شيء يعسر دائماً - حتى على المشرعين - أن يلتزموا به، كما يقضى على الاغتراب بكافة أنواعه اغتراب الإنسان عن الكون اغتراب الإنسان في الوجود، اغتراب الإنسان عن بقية الناس، ويشيع محل هذا الاغتراب الفهم والرضا والإيمان، بل أنه يتحول إلى إعجاب، وإيمان.

من أجل هذا كله لا يعد الإيمان بالله سيطرة للغيبية على الواقع، غلبة للوهم على الحقيقة وإنما هو "ترشيد" و "استكمال" لما انتهى إليه الغرب من مذاهب ومناهج، بما يكفل الرضا للفرد والسلام للمجتمع.

## (٢) عدالة وضمير اليوم الآخر:

مع إن الإيمان بالله هو بالطبع الأصل في الأديان، فإن الإيمان باليوم الآخر يكتسب أهمية كبيرة، كما أن الإيمان به أصعب بمراحل من الإيمان بالله.

فالإيمان بالله قد يكون بديهياً من ناحية أن كل مخلوق لابد أن يكون له خالق، ولكن اليوم الآخر، أي وجود عالم آخر بعد الموت. يبعث فيه الموتى من القبور ويحاسبون على أعمالهم فكرة تستعصي على أذهان معظم الناس، ومع أن الأديان جميعاً قد أشارت إلى "يوم دينونة" وإلى عقاب وثواب ينفذه الله تعالى على المستحقين، إلا أن هذه الإشارات قليلة، مجملة، عامة، ولم يؤكد دين إلا الإسلام تأكيداً تاماً بعث الأجساد من القبور، ثم حسابها أمام ميزان دقيق يحصى الحسنات والسيئات ويصدر الحكم نتيجة لذلك. فهناك الجنة للذين أحسنوا وهناك النار للذين أساءوا.

إن الدين الوحيد - فيما أعلم - الذي يضاهاى تأكيده لليوم الآخر تأكيد الإسلام هو الدين المصري القديم فهناك تشابه قوى في التركيز على اليوم الآخر وعلى الثواب والعقاب فيه، أما بقية الأديان فإن إشاراتهما مجملة، ولم تكن محل تحقيق أو تدقيق لهذا كان الإيمان باليوم الآخر هو العقبة الكئود أمام الإيمان بالإسلام، وجاء رجل عربي وفي يده عظم رميم قائلاً للرسول أترى أن هذا العظم سيعود مرة أخرى إلى الحياة فلما قال له "نعم" ولى ساخراً.

والأغلبية العظمى من - الأوربيين هم من نوع هذا الأعرابي الذين لا يطيقون الإيمان ببعث بعد الموت "ويسخرون من كل من يدعى ذلك وهم كالأولين الذين وصفهم القرآن: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر﴾ { ٢٤ الجاثية}.

والمعالجة المتأنية تظهر إن الأمر ليس كما يبدو للوهلة الأولى. أن الإنسان عندما يتحول إلى تراب فإنه يؤكد ما ذهبت إليه الأديان من أن الإنسان "خلق من طين ثم تطور بسلسلة من التطورات العديدة حتى أخذ

شكله الحالي، وعندما يموت فإنه يتحلل إلى تراب يحمل آثاره الخاصة، ولا يصعب على قدرة الله أن يعيده مرة أخرى، وقد قلنا أن قدرة الله تجاوز قدرة البشر، وأن من الخطأ أن نقيس قدرته، أو طريقته، على طريقتنا أو قدرتنا، والفكرة وإن كانت عسيرة بمعاييرنا فإنها لا تخالف العقل، ونحن بعد نؤمن بأن المادة لا تفنى، وأن الوجود أدنى إلى العقل من العدم.

إن الفكر المادي لا يقدم بالنسبة لمستقبل البشرية وكوكب الأرض إلا الفناء، فبعد مدة لا بد أن يأتي يوم تحترق فيه الأرض وتتفحم وتتهاوى شظايا وأشلاء تذررها الرياح، وهو المصير الذي ينتظر بقية الكواكب الأكبر فسيأتي يومها حتى لا تعد حياة أو وجود وإنما عدم كأن لم توجد في يوم من الأيام بشر، وحضارات وفنون، وعلوم.. الخ.

فهل هذا التصور العدمي أقرب إلى القلب والعقل من تصور يفترض وجود قوة تحلق، وتدير وتنظم الكون، وإذا انتهت هذه الحياة الدنيا فإنها تبث حياة أخرى، أكثر تقدماً، حياة سلام، ينضم لها حتى الذين عذبوا في النار جزاء ما اقترفوه من جرائم في الحياة الدنيا.

إن الغرض من وجود العالم الآخر، هو وجود محكمة عدالة تستكمل نقص محكمة الحياة الدنيا، وقد تستخدم وسائل لا تخطر بالبال كالتي أشار إليها القرآن.. عن حديث الأيدي والأقدام والجلود.. الخ، بما اقترفته، كما لا تقتصر على عقاب المسيئين، ولكنها تثيب المحسنين إن وجود مثل هذه المحكمة أمر لازم لكمال هيكل العدالة وبدونها فإن هذا الهيكل يهتز، خاصة وإن من المعروف أن محاكم الحياة الدنيا كثيراً ما تعجز عن الاقتصاص من الحكام الظلمة بل أنها قد تصدر الأحكام بتمجيدهم، فإذا لم يكن هناك محكمة عدالة شاملة كاملة تكافئ المحسن وتعاقب المسيء لما تحقق بناء العدالة أو كمل هيكلها وهذا أيضاً من المبررات التي تتطلب وجود الحياة الآخرة.

لقد عمقت عقيدة "الدار الآخرة" أكثر من أي شيء آخر حاسة العدالة، وكانت هي بذرة الضمير، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الديانة الوحيدة التي تماثل الإسلام في هذا هي الديانة المصرية القديمة، ومن هنا فليس مما يثير العجب أن يسمى المصريولوجي المشهور بريستد كتابه عن حضارة مصر القديمة "فجر الضمير" Dawn of Conscience.

ف عندما يؤمن الإنسان أن الموت ليس هو نهاية كل شيء وأن هناك حياة أخرى قد تكون ثواباً كما قد تكون عذاباً تبعاً لمحاكمة دقيقة عادلة عما قام به في الحياة، فإن هذا ولاشك يغير تصرفات وسلوك الإنسان، لأن من يرى أن ليس للإنسان إلا هذه الحياة الدنيا والسنوات التي يعيشها، وأن الموت هو نهاية كل شيء، فإن هذا يجعل الإنسان يستهدف الاستمتاع بكل طريقة، وتجنب كل صور العناء والمتاعب، وأنه إذا أمن ملاحقة القانون فإنه يستطيع أن يمارس ما يحقق به مآربه.. الخ.

وقد أثبتت التجارب أن فكرة "الواجب" كما صاغها فلاسفة أوروبا وبوجه خاص "كانت" عجزت عن أن تعصم الأغلبية الكبيرة من إغراءات الشرور والشهوات وأن نجحت بالنسبة لقلّة من الناس، كما أنها لا تأخذ الصفة الموضوعية فقد كانت ثمرة أنبتتها التربة الأوروبية، وطبقت في التربة الأوروبية بالأوروبيين وعلى الأوروبيين.

لقد استنكف بعض المفكرين الأوروبيين فكرة الثواب والعقاب – خاصة بالصورة التي تقدمها الأديان جنة، ونار وأعراب ويل دورانت في الخاتمة التي وضعها لموسوعته "قصة الحضارة" عن عزوفه عن الصور التي

رسمها الرسام القدير ميكيل أنجلو وصور فيها ملاكاً يقذف بالمخالفين إلى النار وربما كان الحذر من حدوث مثل ذلك من أسباب تحريم الإسلام تصوير مشاهد يوم القيامة، وقد قال كبار الصوفية إنهم يعبدون الله لا خوفاً من ناره ولا طمعا في جنته، ولكن إيماناً به وحباً له.

ولكننا إذا كنا أمناء مع الطبيعة البشرية لوجب علينا أن نسلم بأن رجاء الثواب وخوف العقاب هو أقوى عامل في تحقيق الانضباط الضروري للسير السليم للمجتمع، ولو لم يوجد لتطرق الخلل. وأن كانت الصور التي يأخذها الثواب والعقاب تتفاوت مع تفاوت مستويات الناس. وقد قال الشاعر العربي القديم:

### والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة

ولما كانت الأديان تقدم للناس كافة فلا يجوز لنا أن نلومها، فهناك العديد من الناس تصل بهم القسوة واللامبالاة لأن لا يتأثروا بأقل من النار، أو أن يكون حبه اللذات دافعاً لكي يتجاوب مع جنة المسلمين.

وقد يظن أن هذا ليس هو الأسلوب الأمثل لتوجيه الناس، ولكن ليس أمام الأديان بديل آخر، خاصة وأن الجماهير بقدر ما تتعرف على هذا الأسلوب، بقدر ما ستتهدب حواسها، وقد يأتي يوم ينظر الفرد إلى مشاعره القديمة كنوع من الضلالة، أنقذه الدين منها، وقد لاحظ الإسلام في تقريره للحرام التدرج، فلم يحرم الخمر، والربا، والزنا مرة واحدة، ولكن على مراحل وقالت عائشة لو أن القرآن قال مرة واحدة "لا تشربوا الخمر، لا تقتربوا الزنا" لربما غلب العناد عليهم فقالوا لا ندع الخمر، ولا ندع الزنا.. الخ، ولكن الإسلام ترفق بهم بحيث جاء التحريم على مراحل متعددة كانت كل مرحلة تهيئهم لما بعدها.

وكل من يتتبع تاريخ القانون يعلم أن القوانين في القرون الوسطى كانت في غاية القسوة، وقد قيل إنه كان يوجد أكثر من مائة ذنب يعاقب على كل منها بالإعدام في إنجلترا بما في ذلك مخالفة السير على جسر وستمنستر أو سرقة خمسة جنيهات الخ.. ويرى بعض الكتاب إن هذه العقوبات الصارمة كانت في أصل التزام الإنجليز بالقانون وابتعادهم عن المخالفات.

وفي العصر الحديث تحوط المواطن العقوبات فأى مواطن يقطف زهرة، أو يلقي بورقة في الشارع يعرض نفسه للعقوبة، أما مخالفات المرور فعقوباتها باهظة، وأما التهرب من الضرائب فإنها تقيل الوزارات وقد يكون خوف الموظف من أن يفقد وظيفته ويصبح "عاطلاً" إذا تكررت مخالفاته هو أكبر عامل في انضباط العمل، وإن رجاءه الترقى وزيادة المرتب أكبر عامل على التفاني في العمل.

إذن ليس في الثواب والعقاب ما يسيئ إلى الأديان ولما كان هذا الثواب والعقاب إنما يتم في الدار الآخرة وليس فوراً أو عن طريق السلطة، فإن هذا غرس بذرة الضمير الذي يتحرك دون أن تكون هناك عقوبة أو مثوبة عاجلة.

### (٣) الأنبياء كأبطال وقادة:

يبدأ التاريخ الأوروبي سياسياً وحضارياً مع اليونان، ثم الإمبراطورية الرومانية ثم عصر الرينسانس حتى نصل إلى مشارف العصر الحديث.

في خلال هذا التاريخ الطويل أعتبر القادة العسكريون والأباطرة هم أبطال المجتمع الذين يعدون القدوة والأسوة، ومنذ أن كتب "بلوتارك" كتابه "الأبطال" وقد تأثرت معظم القيادات الأوروبية به بدرجة أو أخرى،

وسيطر على فكر وسياسة بونابرت واستشهد به وهو يسلم نفسه للأسطول البريطاني (وقد كان استشهادهً خاطئاً).

حقاً أن الشعراء والفنانين يشغلون مكانه رفيعة وسامية وكان لهم تأثير على الأجيال، ولكن بدرجة أقل من قادة الجيوش وأباطرة الحكم.

وبالطبع فإن هؤلاء القادة يمثلون صفات القوة، والإرادة، والطموح، والتغلب على الصعوبات، وهي كلها في صميم القيم الأوروبية ولكنها قد تكون بعيدة تماماً عن صفات الخير والحب والسلام والمساواة والرحمة.

والذين يمثلون هذه القيم الأخيرة هم الأنبياء.. وقد تكون أوربا معذورة إلى حد ما إذا لم تضع الأنبياء ضمن القادة والأبطال لأننا لا نعلم نبياً مشهوراً ولد وظهر في أوربا، وقد عبر ماركس عندما تحدث عن الدين كأفيون الشعوب - عن الدهشة التي تنتاب الأوروبيين للأثر الكبير للدين في الشرق الدين (وأن كان هو نفسه بحكم أصله الإسرائيلي آخر من يعجب من ذلك)، ولكن حديث الأنبياء مع هذا لم يكن خافياً من موسى حتى المسيح، وأن كانت العداوات ما بين أوربا والإسلام أساءت إلى نبي الإسلام.

إن الإسلام يقدم الأنبياء بدأ من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد باعتبارهم الأبطال حقاً الذين يستحقون أن يكونوا المثل أمام القادة ورجال الفكر والعمل في المجتمع فهم القادة الذين دعوا الجماهير للإيمان بالله وترك عبادة الأوثان أو الأباطرة، وقادوا الجماهير في أعظم الثورات الشعبية، فقاد موسى قومه المستعبدين للخروج من مصر "أرض العبودية" وقاد المسيح عبيد روما ليقهروا الجيروت الروماني وحول محمد القبائل العربية المتشرذمة إلى أمة تحمل "الكتاب والميزان" - أي العلم والعدل - إلى الأمم المثقلة بالانظم الطبقية والأرستقراطية .

وهذه في الحقيقة أعظم الثورات التي قامت بها الشعوب في تاريخ البشرية ونحن لا نجد مثيلاً لها، في صدق جماهيريتها وفي نقاء قيادتها، وفي شمول أثرها واعتمادها على الإيمان القلبي، وليس الالتزام القسري إزاء السلطات.

وأهم شيء أنها تضع أمام القيادات نموذجاً لما يجب أن يكون عليه القائد من عفة وترفع، وعدم انسياق للشهوات، أو الخضوع للملق والمديح الذي يؤدي إلى الغرور القاتل، ومن المؤكد أن نابليون لو قرأ شيئاً عن محمد وتصرفه عند فتح مكة وعفوه من أعدائه القدامى، وكيف أن هذا العفو جعل أعداء الإسلام الأمس أكبر المناصرين له والمدافعين عنه أو لو عرف شيئاً عن فاتح القدس الرحيم أبو عبيده بن الجراح الذي يماثل في تقواه القديس لويس التاسع ويفوقه في سياساته الرحيمة إزاء المغلوبين فربما فكر نابليون وأخذ سياسات تختلف عما أخذها بالفعل استلهاماً لما فعل قيصر، أو أغسطس.. الخ.

وتصور فعلاً الآثار البعيدة المدى التي كان يمكن لسادة مؤتمر السلام الذي وضع معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ بروح الغل والانتقام من ألمانيا، لو استلهموا موقف محمد بن سادة مكة الذين تأمروا عليه وعذبوا اتباعه، فلما فتح مكة قال لهم "أذهبوا فأنتم الطلقاء".

لقد كان من المحتمل لو أستلهم هذا المثال أن لا يظهر هتلر وأن لا تحدث الحرب العالمية الثانية وأن توفر البشرية أربعين أو خمسين مليوناً قتلوا فيها.

## (٤) ثورة بلا دماء:

قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وأخذت من يومها الأول طابعاً إرهابياً عنيفاً تطلب اختراع الجيلوتين ليتمكن قطع الأعناق بطريقة آلية سريعة تفضل عمل السياف القديم، وكانت العربات تروح وتجيء من الصباح حتى المساء حاملة الضحايا الأبرياء لتقطع أعناقهم بينما يتسلى النساء بأعمال التريكو ويتناول الرجال شرابهم دون أن تنال من الجميع صيحة مدام رولان "أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك".

ولم يأنف مؤرخو الثورة من أن يطلقوا على فترة حكم روبسبير ولم يكن القتل بالجيلوتين هو العقوبة الوحيدة التي ابتكرتها الثورة الفرنسية، فقد ابتكرت أيضاً الموت بإغراق الضحايا، فضلاً عن صنوف أخرى عديدة من الاضطهاد داخل السجون تؤدي إلى الموت، أو تقف على مشارفه.

وقد كان أثر الثورة الفرنسية عميقاً على التاريخ الأوربي لما أحيطت به من مجد، ولما رفعت من شعارات، وفي هذا السبيل اغتفرت لها كل جرائمها وقيل إنها "شرعية ثورية"، بل وأصبح هذا التاريخ ميراثاً قومياً، وهون على القادة ارتكاب الجرائم.

ودفع لينين فكرة الشرعية الثورية إلى آخر المطاف، فقتن القضاء على الحرية وجعل من الضرورة البيغضة مبدءاً مقدساً "وشرع" استصفاة الخصوم واغتصاب المغتصبين، ووضع مبدءاً "لا حرية لأعداء الشعب!" وهي كلها شعارات تصب في سلطة الحاكم..

واعتبر التكتيك اللينيني مبدءاً مقدساً تطبقه كل الثورات الماركسية من أوربا حتى الصين، وحتى السودان، وسالت الدماء أنهاراً وفتحت المعتقلات على مصراعيها لتستقبل كل المعارضين.

وعلى يدي لينين تتلمذ هتلر وموسوليني وطبقا نظامهما الثوري الشنيع..

وعلى خطى هؤلاء جميعاً سار الضباط والعساكر الذين قاموا بالانقلابات العسكرية في الشرق الأوسط أو أمريكا اللاتينية.

وحدث هذا كله لأنه ليس لدى أوربا معرفة بسوابق ثورية تبرأ من هذه اللوثات، في حين إن الإسلام قام بأعظم ثورة دون انتهاك للشرعية، ودون أراقه دماء.

وقد وضع الإسلام مبدءاً فريداً هو أن الإسلام يَجِبُ ما قبله. فما أن يؤمن أعتى الأعداء حتى يستقبل استقبال الأخوة وتطوى صفحة عداوته كأن لم تكن. وقد يكون هذا المسلم ابناً لأكبر أعداء الإسلام فيقبل ولا يحاسب ولا يعير بأبيه، ومن هذا الطريق كسب الإسلام أعظم أعدائه.. خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل.

لما كان الهدف من رسالة الإسلام هو بتعبير القرآن الكريم "أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور" فإن ثورته كانت - كالنور - بيضاء - كانت تقوم على الكلمة، وعلى الضمير، وتعزز قيم الشرعية، ولا تسمح بانتهاكها بأي ذريعة.

ومن أعجب المفارقات أن أحيط بالإسلام شبهة القتال والجهاد و "السيف" والحقيقة أن الحرب لم يؤذن بها إلا بعد أن وصل الاضطهاد أعداء الإسلام إلى حد "فتنة" المؤمنين أي إرغامهم على ترك الإسلام. عندئذ فحسب أذن الله تعالى للمؤمنين بدفع هذه الفتنة بالقتال كما هو واضح من أول آية سمحت بالقتال فالقتال في الإسلام كان قتالاً في سبيل حرية العقيدة وليس في سبيل فرضها، وليس أدل على ذلك من أن الجيوش الإسلامية المنتصرة لم ترغم أحداً على ترك دينه واعتناق الإسلام بل كانت الأوامر لديها من الرسول ﷺ ومن

الخلفاء الراشدين تقضى بحماية الكنائس والصوامع والأديار وعدم قتل الكهان ورجال الدين، وقد كانت أوربا هي التي أبدعت القتال لإرغام الشعوب على اعتناق المسيحية وتاريخها حافل بذلك بل أن حربها امتد ليشمل المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية المقررة، أو حتى البيزنطية، وقد عذب أقباط مصر على أيدي المسيحيين في بيزنطة عذاباً بشعاً وهذا شئ لا يعرفه الإسلام لا بالنسبة لغير المسلمين، ولا بالنسبة لما بين المذاهب والشيع الإسلامية كما كان من المحرم على الجيوش الإسلامية بمقتضى أوامر الرسول والخلفاء أن يسلبوا أو ينهبوا وكان عليهم أن يشترروا كل مؤنهم وغيرها، وحرّم عليهم كذلك إحراق البيوت أو قطع الشجر.. الخ، وبعض هذه الأوامر لم يتبع فيما بعد النبي والخلفاء، ولكن ذلك لا يحسب على الإسلام، وأنا على الذين اقترفوه..

وعندما ثار على الخليفة الرابع الإمام على بن أبي طالب - فرقه من جيشه - وانخذلوا في حميم المعركة، واعتزلوا الجيش وسيوفهم على عواتقهم حتى استقروا بحروراء تركهم الإمام على ولم يقربهم حتى قتلوا بعض المسلمين فطلب منهم تسليم القاتل فقالوا "كلنا قتله!" وحتى عندئذ فإنه أعلن قبل أن يدخل معهم في قتال أنه يسمح لمن يشاء أن يعتزل دون أن يمسه أذى.

وقد بسط الإسلام سيادته على شبه الجزيرة العربية واضطر لدخول عدد من المعارك الدفاعية، أورداً على نقض العهود" لم يبلغ قتلها بضعة مئات، ولم يحدث أبداً نهب أو سلب باستثناء ما يغتمه الجيش من سلاح أعدائه، في حين كانت الجيوش الرومانية المنتصرة تبيع لجنودها المدن المنهزمة لتعيث فيها نهباً وسلباً وغصباً.

ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى الطابع الأخلاقي للدين، فما لا يتسق أن يدعو الدين إلى الفضيلة وأن ينهك دعائه في الرذيلة أو النهب والظلم.. الخ، أما الثورات السياسية التي عرفتها أوربا فإنها استهدفت السلطة وحتى عندما أرادت أنصاف المظلومين فإن هذا حدث بظلم الظالمين، ولا يمكن أن يقوم عدل على ظلم، ولو كان للحاسة الأخلاقية عمق في الثورات الأوروبية لكان من المحتمل أن تبذل هذه الثورات جهداً لكي تنصف المظلومين دون أن تظلم الظالمين بما قد يفوق ظلمهم، فقد اغتصبوا أموالاً فجاءت الثورات وحرمتهم من الحياة نفسها وكان يمكن أن تعيد إليهم ما اغتصب منهم. ولكن هذا ما كان يحدث لأنه يناقض فكرة القوة التي قامت عليها الحضارة الأوروبية وجعلتها تقرر وتتقبل نظرية "الشرعية الثورية" التي قامت عليها الثورة الفرنسية، كما قدمنا، والأقرب هو أن تأخذ بمبدأ "الإرهاب بالجملة" الذي أخذه مجلس السوفيت عندما قرر القيام بثورة أكتوبر.

لقد كان أعظم فتح في تاريخ الإسلام هو فتح المدينة، وقالت عائشة "فتحت المدينة بالقرآن"، لأن الرسول أرسل إليها مصعب بن عمير ليعلم المسلمين القلائل بها القرآن، ونجح مصعب بن عمير حتى فشا الإسلام في المدينة، وبهذا فتحت بالقرآن، دون سيف أو سنان، وعلى أساس هذا الفتح قامت كل الفتوح.

إن ثورة الإسلام، التي كانت في حقيقتها ثورة القرآن - تقدم نوعاً من الثورات تحذر الدماء وتبقى على الحقوق، وتعزز الشرعية وتقاوم كل انتهاك لها، وتصل إلى أهدافها بالحكمة والموعظة الحسنة أنها تحقق ثورة من نوع جديد، والإسلام ليس بدعاً بين الأديان، فكل الأديان لا بد وأن تسلك هذا المسلك وما يميز الإسلام هو أنه أعلا درجة أخذتها الثورية الدينية لتحقيق ثورة، ولكن دون دماء.

## (٥) في مواجهة الشطط:

قيل الكثير عن الحضارة الأوربية بين أنصارها وخصومها، ويمكن القول أنها من أعظم – وأن لم تكن أعظم – الحضارات التي شاهدها البشرية، وقد استخدمت الحرية باليمين والعلم بالشمال فطراً بها إلى آفاق لم تكن البشرية تتصورها إلا في الأحلام، وقد أوجدت أضعاف أضعاف مغارة علاء الدين وتفتح دون حاجة إلى "أفتح يا سمس" وحققت للإمبراطور المجنون كاليجولا حلمه في أن يصل للقمر. ومكنت للعاملة أن تستمتع بما لم تكن تستمتع به "بوبيا" زوجة نيرون التي كانت تصطحب في موكبها ٣٠٠ إتان لتستحم بلبنها إن العاملة الأوربية أو الأمريكية تجد في حمامها ما يفضل ما كان لدى الإمبراطورة، وتلبس من جوارب النايلون، ومن أحذية الكعب العالي.. الخ، ما لم يكن متاحاً، كما إن هذه الحضارة فتحت الباب أمام الفلاسفة والعلماء والمخترعين والفنانين.. الخ، ومكنت الجماهير أن تشاهد الأوبرا ورقص البالية الذي لم يكن يشاهده إلا الأرستقراطية الأوربية وحققت للبشرية بصفة دائمة ومنهجية ما لم يتمتع به سليمان الحكيم إلا على أساس المعجزة – بساط الريح.

ولكن لكل شئ ثمنه، أن هذا النجاح الفائق قد أسكر أوربا بما هو أقوى من أي خمر، وجعلها تمضي قدماً، لأنه لا شئ ينجح مثل النجاح، وكان كل باب تفتحه يكشف لها بعداً جديداً ويفتح لها أبواباً عديدة وهلم جرا، ولما كان نهم الاستمتاع – لأن الاستمتاع هو الهدف الأعلى – لا يقف عند حد، فإن عجلة الإنتاج لا تتوقف، ووراء ذلك جيوش جرارة من العاملين وإدارات ممرسة، وآلاف الملايين من الأموال وأطقم وقيادات إدارية تقتسم أسواق العالم، باختصار إن استحثاث السير أصبح هو "النسق أو الطابع العام لحركة الحضارة"، وأصبح من المفروض أن يأتي كل يوم بأنماط جديدة من المآكل والمشرب ووسائل الاستمتاع، ويقدر ما يستوعبها الإنسان الأوربي، بقدر ما يصبح عبداً مدمناً لها.

لقد أصبح الشطط هو السوءة الأولى للحضارة الأوربية: الشطط في الطعام، الشطط في الشراب، الشطط في الاستمتاع الجنسي، الشطط في الإنتاج، إن زمام الحضارة الأوربية أصبح في يد شيطان الشطط.

هل يمكن إيقاف هذا الشطط؟ هل يمكن إعطاء الآلات أجازة لمدة شهر كل سنة؟ يعطى فيها عمالها أجورهم ويستريح السوق من تخمته؟

هيهات

إن هذا يتناقض مع المثل والقيم التي قامت عليها وامتزجت بها الحضارة الأوربية..

ولو كان لدى أوربا ثقة في "حوار الحضارات" أو كانت مستعدة للتنازل عن عليانها والإفادة من الآخرين لوجدت في فكرة "الوسط" و "القصد" ما ينقذها من ورطتها.

إن الإسلام يجعل أمة المسلمين "أمة وسطاً" كما يجعل المسلك الأسمى للمسلم هو "القصد" وهذان يبعدان المسلم – فرداً ومجتمعاً – عن السرف والشطط والاندفاع ويلزمانهما حدود الأمان ويسرى هذا على العبادة كما يسرى على شئون الحياة الدنيا وآدابها.

إن في كل أله تسير – كما يعلم ذلك كل واحد – أداة للانطلاق وزيادة الزيادة، وأداة أخرى للوقوف وتقليل السرعة.

ولكن أله الحضارة الأوربية، ليس لديها أداة للتوقف وكبح الجماع، وعليها أن تقتبسها من الإسلام.

وفى العبادات الإسلامية "صوم رمضان" وهو الصيام عن الطعام والشراب والتدخين طوال النهار من الفجر حتى الغروب وما أحوج أوروبا أن تجعل آلاتها تصوم شهراً كل سنة.

إن انعكاسات الشطط لا تقف عند الجانب المادي رغم أن انعكاساتها على هذا الجانب عميقة، ولكنها أيضاً تمتد إلى الجانب النفسي، لأنها تشعر الإنسان بالغرور والزهو، وأنه أصبح على كل شيء قدير، ولا يمكن أن تقف قوة أمامه، ومن شأن هذا الغرور أن يوقع الإنسان في مزالج قد تتورط فيها الدولة نفسها، وأوجه النظر إلى ثلاثة أمثله لهذا الغرور القومي ففي سنة ١٨٧٨ تملك الحماسة الجمهور البريطاني تجاه سياسة بريطانيا التي كانت تساند تركيا ضد روسيا. وأثمرت هذه الحماسة نشيد الجنجو Jingo الذي يقول:

**We've got the ships**

**We've got the men**

**We've got the money too**

على أن هذه الحماسة تبدو فقيرة وشاحبة أمام السياسات العدوانية الباطشة التي تمارسها إسرائيل تجاه انتفاضة أطفال الحجارة، إذ نسلط على هؤلاء الأطفال وآبائهم الدبابات والبلتوزر، بل وطائرات إف ١٦، كأن حياة، وأمن وكرامة الفلسطينيين لا قيمة لها.

أما المثال الثالث فهي أكثرها دلالة على ما تملك بعض أفراد الشعب الأمريكي من ازدهار وغرور بما لدى أمريكا من قوى تفعل المستحيلات سواء كانت بالنسبة للشمس أو الكون أو الأرض أو الشعوب قاطبة.

والمثال في شكل نشيد يتحدث عن قدرة أمريكا التي لا يقف أمامها حد وهيمنتها على العالم أجمع، وهو يستخدم الأمريكية الدارجة ومن ثم فسنعرضه بأصله الإنجليزي / الأمريكي لأن الترجمة قد تذهب بمعانيه:

**The New York Times**

**May 20/2001**

**Drill, Grill and Chill**

**By MAURE N DOWD**

**WASHINGTON-We want big. We want fast. We want far. We want now. We want 345 horsepower in a V-8 engine and 15 miles per gallon on the highway.**

**We drive behemoths. We drive them alone. This country was not built on H.O.V. lanes.**

**We don't have limits. We have liberties.**

**If we don't wear our seat belts, it doesn't matter, because we have air bags. If the air bags don't deploy, it doesn't matter, because our cars are so beefy, we'll never get bruised. If we need to widen the streets for our all-wheel drives, we will. If we need to reinforce all the bridges in the country, so that they don't buckle and collapse under our 5,800-pound S.U.V.'s, our engineers will do that.**

**We'll bake the earth. We'll brown & serve it, sauté it, simmer it, sear it, fondue it. George-Foreman-grill it. (We invented the Foreman grill.) We might one day bring the earth to a boil and pull it like taffy. (We invented taffy).**

**If rising seas obliterate the coasts, our marine geologists will sculpt new ones and Hollywood will get bright new ideas for disaster movies. If we get charred by the sun, our dermatologists will replace our skin.**

If the globe gets warmer, we'll turn up the air-conditioning. (We invented air-conditioning.) We'll drive faster in our gigantic, air-conditioned cars to (lie new beaches that our marine geologists create.

We will let our power plants spew any chemicals we deem necessary to fire up our Interplays, our Krups, our Black & Deckers and our Fujitsu Plasma visions.

We will drill for oil whenever and wherever we please. If tourists don't like rigs off the coast of Florida, they can go fly fishing in Wyoming. We won't be deterred by a few Arctic terns. We don't care about caribou. We don't care for cardigans. Give us our 69 degrees, winter and summer. Let there be light-no timers, no freaky- shaped long-life bulbs. (We invented the light bulb).

We want our refrigerators cold and our freezers colder. Bring on the freon. Banish those irritating toilets that restrict flow. When we flush, we flush all the way.

We will perfect the dream of nuclear power. We will put our toxic waste wherever we want, whenever we waste it. We have whole states with nothing better to do than serve as ancestral burial grounds for-our effluvium. It can fester in those wide open spaces for thousands of years.

We will have the biggest, baddest missiles, and we will point them in any direction we like, across the galaxies, through eternity, forever and ever.

We will thrust as many satellites as we want into outer space, and we will surround them with a firewall of weapons for their protection.

We will guarantee broadband and fast connections to the Internet. We will not permit anybody, anywhere, at any time to threaten the delivery of all the necessities to computers, Palm Pilots and Black Berrys: stock quotes, sports scores, real estate listings, epicurean. corn recipes, porn. (O.K., so we didn't invent porn).

By arming space, and protecting satellites, we ensure life, liberty and the pursuit of happiness-our 500 TV channels drawn from the ether.

We will secure the inalienable right of every citizen driving by himself in his big car to be guided by a global positioning system. Nobody should have to call in advance for directions to a party when the satellite can show the way.

We will modify food in any way we want and send it to any country we see fit at prices that we and we alone determine in the cargo ships we choose at the time we set.

Our international banking arm-the World Bank and the I.M.F.-will support whatever dictatorships suit us best.

We will fly up any coast of any nation on earth with any plane filled with any surveillance equipment and top guns that we possess.

We will build super duper jumbo jets so Brooding again that runways will be crushed under their weight at the most congested airports in the history of aviation. (We invented aviation).

We will buy, carry, conceal and shoot firms whenever and wherever we want, as is our constitutionally guaranteed right. (We invented the Constitution.) We will kill any criminal we want, by lethal injection or electrocution. (We invented electricity.)

We are America.

لقد عاب القرآن على أقوام: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ {١٢٨ - ١٣٠ الشعراء}.

إن هذا كله لا يكتب البقاء لا للأفراد ولا للأمم، بل إنه في الحقيقة يدفعها للسقوط في الهاوية، فيقدر ما تنفخ في البالونة بقدر ما تصل بها إلى الانفجار.

\* \* \*

أريد أن أقول إن ما تعرضت له الحضارة الأوروبية من شطط، وما يجعلها تعجز عن أن تتحكم في أهوائها لا تؤمن بالله، ولا تؤمن بحساب وعقاب في الآخرة، وأنه عندما ينعدم هذا فلا تقوى كل ما غرس في النفس الإنسانية من قيم أو حذر وما يقدمه المجتمع من ضوابط أن يقاوم طغيان الأهواء، والشهوات والغرائز، وقد كان الرومانيون يعرفون أثر زهو الانتصار والغرور على القادة الفاتحين في موكب النصر، فكانوا يوقفون وراء القائد المنتصر من يقول له: "تذكر.. أنك لست إلهًا، ولكن الحضارة الأوروبية - على الطريقة الأمريكية - تريد أن تجعل من كل مواطن إلهًا" !

## يا علماء المسلمين القضية ليست قضية اتحادات

### ولكنها قضية تطور آت..آت

#### (على رغم أنف أبي ذر)

بشرنا الكاتب الصحفي الأستاذ فهمي هويدي في مقالة بجريدة الشرق الأوسط يوم ١٦/٤/٢٠٠١ ص ٩ بأن اتحاد العلماء المسلمين يوشك أن يتكون وقدّم لمقالة بإشارة إلى فوضى الإفتاء في العالم الإسلامي، وأنه لا يحسم إلا بالاتفاق على مرجعية رشيدة، وضرب المثل عن فوضى الإفتاء بتعدد وتعارض الفتاوى في قضية تماثيل طالبان، وفي اعتبار من يخرج على طاعة الرئيس الأندونيسي "واحد" بغاة خارجين على الإمام، وكذلك تكفير المغني الكويتي عبد الله الرويشد.

وتحدث عن المجامع الفقهية القائمة مثل المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ومثل المجمع الفقهي للهند والمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث فضلاً عما هو موجود في مصر والكويت ودول أخرى.

ويقول الأستاذ فهمي هويدي: "ومن متابعتي للموضوع علمت أن خطوات عملية عدة اتخذت لأحياء ذلك الاتحاد حيث وزع مشروعه على علماء المسلمين المعنيين في مختلف أقطار العالم الإسلامي، وتم اقتراح قانونه الأساسي كما تم الاتفاق مبدئياً على أن تكون إمارة الشارقة مقراً له بعد أن رحب حاكمها الشيخ الدكتور سلطان القاسمي بالفكرة".

وحسبما فهمت من مطالعة وثائق الاتحاد المقترح فهو لا يلغى المرجعيات الموجودة، وإنما يكمل دورها ويغطي المساحات التي تشملها أنشطة تلك المرجعيات ويحدد مشروع الاتحاد سماته التي ترسم إطار حركته، ومنها - فضلاً عن أنه إسلامي بطبيعة الحال - أنه عالمي يمثل المسلمين كافة العرب والعجم والشرقيين والغربيين والأغلبية والأقلية وهو مؤسسة أهلية بامتياز لا تمثل الحكومات ولا تشتبك معها وإنما تستمد قوتها من ثقة الشعوب والجماهير المسلمة ثم أن الاتحاد مؤسسة مستقلة تماماً لا تتبع دولة من الدول ولا جماعة أيًا كانت ولا طائفة مهما بلغت وهي لا تعز إلا بالانتساب إلى الإسلام وأمتة وفي مواقفه فالاتحاد ملتزم بنهج الوسطية، فلا ينجح إلى الغلو والإفراط، ولا يميل إلى التقصير والتفريط وإنما يتبنى المنهج الوسط للأمة الوسط وهو منهج التوسط والاعتدال" انتهى.

نريد أن نقول لعلماء المسلمين:

إن محاولة التوصل إلى حل واحد محدود في كثير من القضايا يتنافى مع مبدأ يُعد من مفاخر الإسلام وهو حرية الاجتهاد، وأن لا تكون هناك قوة ملزمة أدبياً أو سلطوياً للأخذ برأي واحد دون بقية الآراء.

وهم بالطبع لا يجهلون إن الإمام مالك رفض دعوة أبي جعفر المنصور أخذ الناس بما جاء في الموطأ ولعلمهم يعلمون أن عمر ابن عبد العزيز حاول شيئاً كهذا وأن ابن المقفع في رسالة الصحابة دعا إليه دون أن يستجاب لهذه الدعوات، لأنها تنافي الأصل في الفكر الإسلامي وهو حرية الاجتهاد وقد استبعد - عملياً - مبدأ الإجماع وكلام أحمد بن حنبل والشافعي وغيره قاطع في هذا (ونرجو الذين يردون علينا بساذج القول أو

مشهور النقل أو يعودوا إلى ما أشرنا إليه فنحن لا نجهل ما سيقولون ولكنه رغم وروده في الكتب انعدم في الحياة).

ونريد أن نقول ثانياً إن الاتحاد المنشود لن ينجو من كل المزالق التي تتعرض لها الاتحادات رغم ما أورده الأستاذ هويدي من محاولات لأنه لا بد وأن يكون لديه مالية دولية لا تكفى فيها اشتراكات العلماء والفقهاء وبالتالي فلا بد من دعم - ولو من الدولة المضيفة - وهي الشارقة، كما ورد فإذا لم تدعم الدولة المضيفة فلا بد من تبرعات سخية من مليونيرات البترول، وكفى.

وقد قرأت في جريدة الشرق الأوسط (عدد السبت الصادر في ٢١/٤/٢٠٠١) الصفحة الأخيرة إن موقع إسلام أون لاين الذي يرأسه الشيخ القرضاوي تلقى مليون جنية إسترليني من هيئة آل مكتوم الخيرية ويتلقى التبرعات كل يوم.

ولا شك في أن الاتحاد سيخضع للمعايير الانتقائية الخاصة في تعريفه لعلماء الإسلام وقد يريح نفسه فيأخذ بالترشيحات الرسمية أو الأكاديمية.

أما بالنسبة للمفكرين الذين لا يضعون العمامة الحمراء فإما أن يعدوا (غير مختصين) أو يكون عليهم الخضوع للهوى والمزاج.

وقد يكون أهم من هذا أن نتساءل ما هو الجديد الذي سيأتي به الاتحاد المنشود؟ هل سيشمر عن سواعد الهمة وينبش في أكوام التراث للوصول إلى حلول للمشكلات الجديدة، أم هل سيبدع مذهباً جديداً، وما هي أسس هذا المذهب الجديد؟ وفيه تتفق أو تختلف؟ وما هي الوسطية المطلوبة؟

الذي أعلمه أن علماءنا الأجلاء ليس لديهم وقت للدراسة المتأنية الطويلة، لأن المؤتمرات والإذاعات والمحاضرات والقنوات وهيئات الرقابة الشرعية بالبنوك الإسلامية تتناشهم وتستحوذ على كل دقيقة من وقتهم كان الله في عونهم.

والذي أعلمه أيضاً أنهم بحكم مزاجهم وثقافتهم يتجهمون لكل جديد ويتكتمون كل إضافة فهم إما جاهلون بها أو متجاهلون لها، إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة.. الخ.

وليس لدى دليل إيجابي ولكن لعل لدى دليل سلبي فأنا لم أعلم نبأ الاتحاد إلا من جريدة الشرق الأوسط علماً بأنني قد أصدرت "الأصلان العظيمان الكتاب والسنة" سنة ١٩٨٢، وبعد ذلك أمضيت عشر سنوات (١٩٩٠ - ٢٠٠٠) في كتابة وإصدار الأجزاء الثلاثة من "نحو فقه جديد" (التي أرسلها مجاناً فاعل خير - طبيب بالسعودية إلى شيخ القرضاوي) وأثارت نقاشات عديدة.

على كل حال.. ليست هذه هي القضية..

لم تعد القضية اتحادات واجتماعات ومؤتمرات يقيمها فقهاء وتدعمها حكومات لقد مل الناس هذه الاتحادات والمؤتمرات والرحلات (رايح جاي) وما تأتى به من غناء.

لقد أصبحت القضية تطور آت.. آت..

القضية قضية فقه جديد يضع أصولاً تتفق مع الكليات القرآنية ويستلهم الحكمة كأصل من أصوله ويتعامل مع تحديات العصر بلغته وطرائقه وينحى جانباً كل هذا التراث الذي فقد مضمونه، ويضع الإسلام

على خريطة العصر الحي، وليس في متاحف التراث، وكل ما يقومون به من جهود واتحادات الخ ليست إلا بدائل جوفاء ومحاولات يائسة لعرقلة ظهور الفقه الجديد.

ولكن قطار التطور قد انطلق ولن تقفه قوة كائنا ما كانت.

وفي الحديث الذي أورده مسلم في صحيحه عن أبي ذر أن الرسول قال: "ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة"، قلت وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق، ثم قال على رغم أنف أبي ذر"، فخرج أبو ذر وهو يقول: وأن رغم أنف أبي ذر.

إن هذا الحديث يرينا مدى تشبث الأفراد على وجهة نظرهم ومراجعتهم الرسول مرارًا حتى يحسم الأمر برغم أنفهم.

وعندما يأتي التطور بالفقه الجديد فسترغم أنوف أناس ليسوا بأفضل من أبي ذر.

## "الثوابت" .. ما هي أولاً؟؟

من الطبيعي أن يكون لموضوع الثوابت أولوية وصدارة لأن المفهوم من التعبير أنه يعني القضايا المسلم بها إما بحكم النص القرآني الصريح الذي لا يقبل تأويلاً أو التجربة والخبرة التي ثبتت على مر الأجيال وسلم بها الناس ولم تعد تثير جدلاً أو تساؤلاً.. الخ، وإن هذه الثوابت هي أسس وأصول العقيدة.

من أجل هذا فإن معظم المفكرين الإسلاميين يميلون لاستثناء الثوابت من إطار حرية الفكر فما دامت ثوابت، فالمفروض أن نعمل لتدعيمها وترسيخها لا أن نجعلها عرضة للمساءلة والمناقشة.

وقد كان - وما يزال - لنا رأي وهو أن الثوابت هي أجدر الموضوعات بالمناقشة لأنها إذا لم تناقش فإنها تصدئ أو تتوتن، وأن مناقشتها لا توهنها، وإنما تعطيها حياة جديدة وتكفل لها معاشة العصر، كما تحول دون أن تتطرق إليها الخرافة بحكم التوثين والتقديس.

مع هذا، فإن من الخير دائماً أن نحدد أمرين:

أولهما: ما هي هذه الثوابت على وجه التحديد؟

ثانياً: ما هو الموقف من هذه الثوابت؟

وهذا هو ما نعرض له في هذا المقال..

### ما هي الثوابت:

أولاً: ذات الله تعالى وطبيعته فهذه ما لا يمكن للعقل البشري أن يصل إليها، وأي محاولة لذلك تزج بالإنسان إلى غير طائل بل تسلمه إلى الضلال، ونحن نرفض مجرد التفكير فيها، ونأخذها كما عرضها القرآن ولا نلحق بها ما يضيفونه إليها من أحاديث أو من تأويلات خاصة لآيات الصفات التي مزقت المسلمين، وكان لهم عن هذا مندوحة فالقرآن الكريم تحدث عن اليد فقال: "إِنَّ هُوَ إِلَّا نُذِيرُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" (سبأ: ٤٦)، وقال "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ" (سبأ: ٣١)، فهل يمكن القول إن للعذاب يدا، أو للقرآن يدا لا تشبه أيدي الناس كما يقول الوهابيون، وهذا أكبر دليل على خطأ الاجتهاد فيما يتعلق بالله تعالى فإن هذا الاجتهاد كاد أن يصلهم بالمجسمة.

ومن الناحية المقابلة، فنحن نستبعد الأخذ بأسلوب علم الكلام للاستدلال على وجود الله أو إثبات صفاته، فهو أسلوب غريب على روح الإسلام لأنه يعود إلى روح فلسفات لا تؤمن بالله أصلاً، ولا تؤمن بالإسلام ولذلك تصدر أحكامها على الله تعالى من منطلق فهمها الإنساني، وقد قلنا إن الفهم الإنساني يعجز عن الولوج إلى هذه المنطقة، وقد تطرقت إلى علماء الكلام هذه النظرة دون أن يشعروا.

ولا نجد في قضية القضاء والقدر وجبر الإنسان أو اختياره أي مشكلة لأنها تتعلق بعلم الله الذي لا نستطيع أن نحده ونخطئ لو حكمنا عليه بعلمنا ولأن المشيئة الإلهية، وإن كانت مطلقة شاملة ودون قيد أو شرط، ومما لا يمكن أن نحيط بأفطارها، فإنه - تعالى - بالنسبة للأرض والإنسان ولمجتمع بلور مشيئته في سنن ومبادئ "كتبها على نفسه" بتعبير القرآن، وجعلها هي المناط في تسيير هذا الكون وليس هناك ما هو أصح من الآية "وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا" (المنافقون: ١١)، فقد ربط ما بين مشيئته "والأجل"

وكذلك "لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، فربط مشيئته بتصرف القوم أولاً، وندد القرآن بالذين قالوا: "وقالوا لو شاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" (الزخرف: ٢٠).

وفي عديد من الآيات أوضح القرآن أن الله تعالى خلق في الإنسان عقلاً يميز بين الحسن والقبيح وأرسل إليه الأنبياء، وأنزل معهم الكتب المقدسة ليعرفه على الخير والشر، وليستكمل له ما يعجز العقل عنه ومنحه إرادة حرة يختار بها ما يشاء وهو يثيبه إذا أحسن الاختيار، ويعاقبه إذا أساء، أما كيفية علاقة هذا بعلم الله تعالى السابقة وكيف تتلاءم الحرية مع علمه فهذا ما لا نشغل أنفسنا به، لأننا لا نحيط به.

وكل الانحرافات والتعسفات في العقيدة إنما جاءت من محاولة الحكم على الله تعالى بمقتضى الفهم الإنساني، مع أنه تعالى قال: "فلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ" (النحل: ٧٤)، وأي محاولة للاختراق لابد وأن تنتهي بالضلال والانحراف.

ثانياً: يلحق بذات الله تعالى عالم الغيب بدءاً من الموت حتى الدخول في جنة أو نار، فنحن نؤمن بها كما جاءت في القرآن، ولا نضيف عليها ما جاء في معظم الأحاديث لأن عالم الغيب هو ما أستاثر الله به ومن ثم فلا يكون موضوعاً لأحاديث تعلن على الناس، ونحن لا نجهد أنفسنا في تفاصيل ما جاء في القرآن عنه لأن ما أراده القرآن هو الانطباع العام، ولكننا لا نستبعد أن يكون معظم ما جاء عنه هو باب المجاز الذي يؤثره القرآن عند الحديث عن هذه المجالات ليتحقق الصدق الفني الذي يلجأ إليه لتكثيف المعنى كما نقول هو بحر في السخاء، وأسد في الشجاعة، وليس هو بحراً، ولا أسداً، ولكن رجلاً، ولكننا ندع لكل واحد أن يفهم ما يطمئن إليه فواده دون محاجاة، أو محاولة لحمل الآخرين على الأخذ به.

ثالثاً: القرآن الكريم: نؤمن بأن القرآن الكريم هو توجيه الله تعالى الذي أوحى به إلى الرسول، ونحن نتقبله ونرى أنه الحق الذي لا يتطرق إليه باطل، ونستبعد كل ما حشيت به التفاسير وما أورده بعض الأسلاف من أقوال تحذف أو تضيف، كما نستبعد النسخ في القرآن وكذلك أسباب النزول ولا نرى لها حاجة إلا التطفل على النص وإيجاد إحياءات مضللة رغم القول إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

ولا يعني تقديسنا للقرآن واعتباره من الثوابت ألا نعمل الفكر فيه، لأن هذا هو ما يوجب القرآن نفسه علينا، "وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا"، والنظر في القرآن ككل هو ما يقربنا إلى روح القرآن ومضامينه العامة التي نستلهمها في وضع القواعد واستنباط الأحكام مما قد يجعلنا نجمد نصاً، لأن العلة التي وضع لأجلها انتهت، وهو ما تنبه له عمر بن الخطاب في بعض اجتهاداته.

وبالطبع فنحن لا نعتبر تفسيرات المفسرين من الثوابت، بل نرى أنها شغلت الفكر بتفاصيل وحكايات ملفقة بعيدة عن اللب والجوهر في القرآن، وبهذا أساءت إليه وجنت عليه.

ونحن لا نعتبر أن من الثوابت أحكام المذاهب وأقوال الفقهاء، بل حتى أقوال وأعمال الصحابة بمن فيهم الخلفاء الراشدون، إننا قد نستأنس بها ولكننا لا نراها من الثوابت الملزمة.

رابعاً: السنة تعد السنة أيضاً من الثوابت بعد ضبطها بضوابط القرآن وإن كان هذا سيجعلنا نتوقف أمام العديد من الأحاديث التي تضمنتها المسانيد وكتب الصحاح "بما في ذلك صحيحا البخاري ومسلم"، وفي مقابل هذا فنحن نرفض الأخذ بما اعتبره الفقهاء ليس تشريعاً من السنة مثل المبادئ والممارسات التي أرساها الرسول كقائد جيش ورئيس دولة، إذ أننا نعتبرها أولى بالتطبيق مما جاء في جزئيات العبادة، كما أن شخصية الرسول تستأثر بأهمية كبرى وتظل خالدة دائماً، إن القرآن عندما قال: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" (الأحزاب: ٢١)، فإنه كان يرسى مبدأ من أهم المبادئ وأكثرها تأثيراً في الحياة والمجتمع - هو

الأسوة والقدوة - وهو مبدأ لا تشير إليه الكتابات الأوروبية التي تعني بالنظم والسياسات، في حين أنه يمكن أن يعني عما يضعونه من ضمانات وما يستهدفونه من غايات.

خامساً: ومن الثوابت الشعائر العبادية التي فرضها الله وهي الصلوات الخمس كل يوم، وصيام رمضان شهراً في السنة، والزكاة كل عام، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً مرة واحدة.

وهذه هي العبادات التي يجب أن يقوم بها المسلم قياماً حسناً فيه النية وفيه الخشوع وحضور القلب، أما السنن والنوافل سواء كانت في الصلاة، أو الصيام أو الحج والعمرة، فمن الخير أن يدخر المسلم وقته وجهده لما أصبح أكثر أهمية من عمل في القضية العامة.

ولرب قائل يقول: هل تحجر على مشاعر الذين يجدون أنفسهم تهفو للصلاة، ويحسون الطمأنينة والراحة وهم يتهجدون بالليل؟ فنقول نحن لا نحجر على من يستشعر هذا أن يقوم بما يشاء من تهجد وصلاة ولكننا نتحدث عن عامة الناس، ومن ناحية المبدأ أما بالنسبة للأحاد، فلكل أن يتبع ما يتفق مع نفسه ولكننا نفضل ما ذهبنا إليه للعامة تخفيفاً عنهم وحرصاً على الأولويات.

وعندما أوجب الإسلام أداء هذه الشعائر والعبادات، فإنه في الوقت نفسه أوجد تيسيرات وخصاً مثل الجمع بين صلاتين في الحضر عند الضرورة ومثل المسح على الجوربين، والتيمم عند انعدام الماء، والإفطار للسفر وإفطار المسن الذي لا يطبق الصيام وبعض التيسيرات مما جاء بالقرآن الكريم والآخر مما جاءت به السنة، ونحن نأخذ بها لأن الرسول رحمة للعالمين "عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ" (التوبة: ١٢٨)، "لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ" (الحجرات: ٧)، ولأن التيسير أصل من أصول الإسلام فليس في الأخذ بهذه الرخص شبهة.

بعد هذا كله إذا فات فرد أداء بعض هذه الواجبات فهناك صور عديدة لإصلاح هذا مثل الاستغفار وعمل الصالحات والإنفاق والتوبة - وهي ممارسات تصلح لتعويض ما قد يطرأ لأحد فيؤدي إلى عدم قيامه بأحد الفروض دون تمييز، بمعنى أن ذلك ينطبق على الصلاة أيضاً، فإن القداسة الخاصة للصلاة ليست أعلى من التوبة\*.

## جاء يحمل أسلحته وكتبه منذ ١١٠ عاماً فريدمان الأول أو قصة الاستيطان المشؤومة التي بدأت مبكراً

في أول أغسطس سنة ٢٠٠٠ كتب الصحفي الأمريكي توماس ل. فريدمان في مجلة "فورن أفيرس" مقالة موجهة إلى الرئيس حسنى مبارك على لسان الرئيس الأمريكي بيل كلينتون تتسم بالفجاجة والعنجهية الأمريكية، وعبرت تعبيراً تاماً عن التأييد المطلق لإسرائيل والضيق بما تبديه مصر من تحفظات.

وأثارت المقالة وقتئذ رد فعل عنيفاً، وكتب الأستاذ إبراهيم نافع في الأهرام والأستاذ إبراهيم سعدة في الأخبار ردّاً مطولاً، وكادت هذه المقالة الحمقاء تؤدي إلى توتر العلاقات ما بين مصر والولايات المتحدة.

وما يجلهه القراء أن فريدمان هذا ليس هو أول "فريدمان" إسرائيلي، فقد سبقه بوقت طويل سنة ١٨٩٢ فريدمان آخر ألماني، هذه المرة قام بمغامرة تثير الدهشة لهدف الاستيطان الإسرائيلي ليظهر مدي جراءة هؤلاء الناس وافترانهم على الحقيقة والتاريخ.

ونحن مدينون بهذه القطعة من المعرفة لكتاب "وإن عدتم عدنا" من تأليف الأستاذ محمد صبيح الذي ظهر في أول سنة ١٩٦٢ ونشره تحت عنوان "من محاولات فريدمان إلى وعد بلفور" واعتمد فيه على ما جاء في صحف هذه الفترة فقال: "بدأت محاولات اليهود الحديثة، وضع أقدامهم في أرض العرب عام ١٨٩٢ أي بعد أحد عشر عاماً من المذابح التي وقعت لهم في روسيا".

وصاحب هذه المحاولة ألماني اسمه "فريدمان" وقد روت صحيفتنا "المؤيد" و "الأهرام" قصة هذه المحاولة في أعداد ٩ يناير سنة ١٨٩٢ وما بعدها، ومما يلفت النظر أن اختيار هذا اليهودي الألماني لأرض "مدين" إنما أريد منه متابعة نفس الخطوات التي سار عليها وأوصي بها سيدنا موسى بعد خروجه من مصر، وانقضاء فترة التيه في شبه جزيرة سينا مدة أربعين سنة.

وفيما يلي خلاصة ما جاء في المؤيد والأهرام عن هذا الحدث الفريد بلغتهما.

إن المسيو فريدمان رجل إسرائيلي ألماني، عقد العزيمة منذ أزمنة طويلة على تشييد مملكة إسرائيلية في الأراضي المقدسة التي ذكرتها التوراة، والكتب المنزلة، مبعثاً لموسى عليه السلام، وقد وجد من ثروته وثروة كثير من أفراد بني إسرائيل في أوروبا عضداً قوى فيه الأمل وبعث إلى إظهار الأمانى التي علقت بذهنه واختلجت بصدرة، ثم تحركت فيه الغيرة والحمية المليية بسبب ما حل بقومه وبني مذهبه في روسيا أخيراً، حتى هاجر إلى الديار المصرية وتقابل مع كبار رجال الحكومة يومئذ، وحادثهم في استعمار بقعة من جزيرة العرب، والظاهر أنهم لم يكثرثوا بالمسألة كثيراً، وغاية ما ظنوا، أن في مسعى ذلك الرجل أحياء موات من الأرض غير منتفع به، فلم يقابلوه بالرفض، ولا ندرى هل أجابوه إجابة صريحة بالقبول أم لا، ولكن نتائج وفوده في العالم الماضي قد دلتنا الآن على أنه لم يُمانع فيما طلب، وقد بلغنا أيضاً أنه زار جناب السير بارنج "اللورد كرومر" وفتح في هذا الموضوع فأجابته أن مطلبه خاص بداخلية الحكومة المصرية وليس من متعلقاته، وكذلك شأن قنصل ألمانيا، وإن لم يبخل ببعض المساعدة له وعليه فقد رجع الرجل إلى بلاده.

ولم يمض زمن حتى اشترى وابوراً بحرياً وحمل عليه من الذخائر والمدافع ما اتخذه عدة له، والغريب في ذلك أن من تلك المدافع ما اشتراه على ما بلغنا من جمر ك الإسكندرية، ثم قصد جزيرة العرب، فأرسي سفينته قريباً من جهة الطور، عندما كان يسمى "شارما" وكان قد حمل على وابوره بعضاً من العلماء، وفيهم المهندس والكيمائي والجغرافي، ونحو ثلاثين عائلة من اليهود المهاجرين، وضرب لهم الخيام في الوادي المقدس بالقرب من مدينة "مدين" وقد أراد أن يتخذها عاصمة المملكة الجديدة فيما بعد، كما كانت في زمن إسرائيل، ثم أخذ بعد ذلك يجوس خلالها ويتفقد نجودها ووهادها، ولكن في أثناء ذلك لقي من الأعراب المقيمين بتلك الجهات، ما قاسى من أجله بعض الصعوبات، ولم يتمكن من استمالتهم نحوه لأنهم توجسوا منه شراً، ولم يصدقوا ما كان يمدعهم به، من أنه يريد الإقامة في جوارهم بدون أن يحل بهم أذى أو يلحقهم أي ضرر، سيما عندما شاهدوا عنايته الكبرى بتسلح من معه من المهاجرين بالبنادق والمدافع والأسلحة البيضاء، ولكنه ادعى أنه احتل الجزيرة برخصة من الحكومة المصرية.

وسارع إلى مصر جمع من الأعراب، وسعوا إلى دواوين الحكومة زمناً، فلم يسمع منهم قول، ولم يلتفت إلى شكواهم، فرجعوا من حيث أتوا، ولجنوا بعد ذلك إلى دولتو وإلى الحجاز الذي أصدر أمراً لأحد الضباط أن يستصحب معه نفرًا من العساكر ويسير بهم ليتولى خفارة قلعة "المويلح" وما والاها "حيث استوطن فريدمان" نظراً لأن هذه المنطقة لم تكن من حدود الحكومة المصرية، بل من أملاك الدولة العليا "تركيا"، وغاية ما في الأمر أن الدولة العلية كانت قد أنابت الحكومة المصرية عنها في خفارتها بسبب أنها كانت طريق المحمل الشريف المصري، فلما انتهت هذه المأمورية بسبب أن هذا المحمل يذهب الآن عن طريق البحر إلى جدة، لم يكن لحكومة مصر من حاجة بها، ولا هناك ما يحملها على تحمل المشقات بدون فائدة، فضلاً عن كونها ليست من دائرة حدودها، فإنها غير صالحة للاستعمار إلا بعد عناء وجهد، ولهذا كان ما أشار به دولة والي الحجاز لم يخرج عن الحكمة، خاصة بعد أن علم أن بعضاً من الأجانب قد استطال إلى هذا الحد !!

فلما وصل الضابط العثماني ومن معه من العساكر إلى "المويلح" تقابل مع المسيو فريدمان وقومه في جهة يقال لها "ضبا" فسأله عن سبب نزوله في تلك البقعة، فأجابته أنه مستعمر لها برخصة من الحكومة المصرية وليس له الحق أن يمنعه من الإقامة فيها وإذا شاء الحرب فله ذلك، فأرأي الضابط أن مأموريته قاصرة على النزول بتلك الجهة وليس مأذوناً بحرب، ولذا اختار أن يرجع لإبلاغ حاكم الحجاز ما كان.

وتمضي الجريدة فتشير إلى الإجراءات التي اتخذت عندما شاع نبأ ما حدث، إذ أرسلت حكومة مصر قوة عسكرية وعلى رأسها ضابط إنجليزي، فأغضب ذلك الدولة العثمانية واحتجت على ذلك، ودارت المفاوضات حول هذه القضية، وأن هذه الأرض تابعة للدولة العثمانية وليست ملكاً للحكومة المصرية.

وقد قال لنا الثقة ضمن حديثه، إن المسيو فريدمان لا يريد الاستعمار فقط بتلك الجهة، بل يريد تأسيس مملكة إسرائيلية في أرض إسرائيل الأولى، وأنه استصحب معه ثياب الملك، ومهياً رسوم وألقاب ورجال الدولة، ويؤمل أنه إذا لم تعانده المقادير لا يمضي زمن حتى يؤسس قاعدة تلك المملكة المقدسة.

وطلبت جريدة المؤيد من الحكومة المصرية ألا تسمح باحتلال أجنبي لأي جزء من جزيرة العرب، خصوصاً أنها ليست لمصر وإنما هي من حقوق الدولة العثمانية.

أما جريدة الأهرام فقد ذكرت هذا الحادث في عددها الصادر يوم الخميس ١١ فبراير سنة ١٨٩٢م، بما لا يخرج عما جاء في زميلتها القاهرية "المؤيد".

وعادت جريدة المؤيد في عددها الصادر في يوم السبت ١٣ فبراير لمعالجة الموضوع وذكرت مزيداً من التفاصيل عن نشاط فريدمان، وكيف بدأ يزاول سلطانه كحاكم فعلي.

فقالت: "وقد استحضر الرجل بعض ذخائر حربية وأراد الاستيلاء علي بعض الأراضي من مشايخ العرب، فاستمالهم بإعطاء نياشين وهدايا توصلها إلي التملك، ومع أن العهود التي عقدت في باريس يظهر فيها جلياً أنه لا يجوز لأي أجنبي كان، أن يمتلك شبر أرض من الأراضي الحجازية، وقد كان هذا سبب تأثر الباب العالي، وعلي الخصوص فإن فريدمان زعم بأنه مصرح له من ألمانيا وإنجلترا ومصر زورا وبهتاناً، فضلاً عن ذلك فإن هذا الرجل استعمل القسوة مع النفر الذين أحضرهم معه من بولونيا ومن ضمنهم واحد إنجليزي، وحاكمهم محاكمة عسكرية وقطع عنهم مرتباتهم، بل ومنع عنهم الأكل والشرب، وقد صدر الأمر إلي فريدمان بالرجوع إلي مصر، وعلمنا أن جناب المستر أفان بارنج "لورد كرومر" أظهر الميل إلي حسم هذه المسألة، فطابق ذلك أميال الحكومة المصرية، ورغبة الباب العالي، وقد تقرر مبدئياً أن يكون الخط المفروض بين العريش والعقبة حداً مصرياً، وما وراء ذلك للباب العالي حسب الفرمانات السلطانية".

وذكرت جريدة المؤيد في عددها الصادر يوم ١٦ فبراير سنة ١٨٩٢ أن حكومة مصر قررت التخلي عن العقبة للدولة العثمانية رغبة في مجاملة الباب العالي، وكان هذا التخلي ثمناً لصدور الفرمان العثماني بتوليها عباس الثاني الحكم.

وهكذا أدي هذا المشروع اليهودي المبكر، إلي أن خسرت مصر ميناء العقبة، وهو الذي يقع علي رأس منطقة مدين شمالاً.

وأما منطقة مدين فتقع من ميناء العقبة شمالاً إلي ما يلي ميناء "الوجه" جنوباً، وكانت "الوجه" في ذلك الوقت هي محجر الحجاج الصحي.

وكان الإنجليز قد جاسوا خلال أرض مدين، قبل احتلالهم لمصر، إذ اقنع الكابتن ريتشارد بورتون الخديوي إسماعيل بأن يرفع خرائط هذه المنطقة، بحجة أن بها مناجم الذهب التي تغني مصر، وتملاً خزائن الخديوي، وقام "بورتون" بهذه الرحلة ونشر خرائط أرض مدين في إنجلترا عام ١٨٧٨، أي قبل الاحتلال البريطاني لمصر بأربعة أعوام، وفي العام التالي أصدر كتاباً من جزأين، وصف فيه المنطقة وصفاً تفصيلياً. وخرائط هذا الرحالة الإنجليزية ومن كانوا معه، تضمنت سياحتهم إلى قرب المدينة المنورة، وميناء ينبع.

وما هي إلا ثلاثة أعوام حتى بدأت محاولة "فريدمان" اليهودي الألماني، في إنشاء أول مستعمرة يهودية في شمال الحجاز، وإذا كانت المحاولة المذكورة قد أخفقت، إلا أنها كانت إشارة كافية عن الاتجاه الذي ستذهب منه الريح اليهودية بعد ذلك على أرض العرب.

وحديثنا عن أطماع اليهود في الحجاز، ولا سيما أرض خيبر، ومساكن بني قريظة في المدينة المنورة، لا يحتاج إلى دليل أقوى مما حدث في أواخر القرن الماضي، ومما يحدث الآن، عندما ينشر اليهود خرائطهم في لندن ولا يكتفون حتى بالمدينة المنورة ومكة، ولكن يضيفون لا سمهم شبه جزيرة العرب كلها\*.

• نشرت بمجلة القاهرة في ١١/٢٨/٢٠٠٠م، العدد (٣٣).

## لماذا تعثرت مشروعات النهضة في مصر

هناك كتابات عديدة تجيب عن هذا السؤال، ولكن لا يزال الموضوع في حاجة شديدة إلى المزيد الذي يعالج مشروعات النهضة من جوانب جديدة أو تذهب إلى الأعماق الخافية وليس إلى السطوح الظاهرة.

ولمصر تجربتان، حكومتان استهدفتا إقامة دولة قوية ناهضة في مصر، أولاهما تجربة محمد علي، وثانيتهما تجربة جمال عبد الناصر، وفيما بين هذين ظهرت تجربة أجهضت عندما كانت قاب قوسين من النجاح وكانت من ناحية استكمال الشروط والتجاوب مع الشعب هي أصدق التجارب تلك هي مظاهرة عرابي في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م.

كما وجدت على المستوى الأهلي والدعوى ثلاث شخصيات بارزة كافحت في سبيل النهضة، خاصة لتجديد الفكر الإسلامي الذي هو في قاعدة وجدان الشعب هم (السيد جمال الأفغاني والشيخ محمد عبده والإمام الشهيد حسن البنا).

وللأسف فقد فشلت تجربتا محمد علي وجمال عبد الناصر، وأجهضت محاولة عرابي، كما لم تكلل بالنجاح جهود الرواد الثلاثة للنهضة الإسلامية.

وفي هذا المقال، ومقالات تالية سنعرض لكل تجربة من هذه التجارب، وعوامل ظهورها، والأسباب التي حالت دون أن تكلل بالنجاح.

لقد كانت أعظم هذه التجارب حظاً من التوفيق وأدناها إلى النجاح هي تجربة محمد علي التي بدأت من ١٨٠٥م عندما خلع السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي على محمد علي خلعة الولاية، ونصباه حاكماً باسم الشعب، ليحكم بالعدل والشرع ورفضاً الوالي التركي خورشيد باشا الذي أرسله الخليفة العثماني ليكون والياً على مصر وأعاداه إلى تركيا.

ويعود الجزء الأعظم من نجاحها إلى عبقرية محمد علي الذي أثبت أنه رجل دولة وإدارة مطبوع وتوافرت فيه معظم مقومات "بناة الإمبراطوريات"، وبهذه القدرات والمواهب الاستثنائية نهض بمصر "من العدم" كما قالت كتابات ذلك العصر حتى جعلها إمبراطورية تمتد حدودها من جبال طوروس شمالاً حتى منابع النيل جنوباً وتتبعها الحجاز أيضاً.

وخلق من لا شيء تقريباً صناعة وأسس جيشاً وأقام المدارس وشق القنوات والقناطر بما فيها ترعة المحمودية التي أحيت الإسكندرية عندما زودتها بالماء العذب، والقناطر الخيرية التي نظمت طرق الري.

كان لمحمد علي مشروعه النهضوي، ولكنه لم يكن المشروع الحضاري القومي، ولكن المشروع الإمبراطوري الفردي، وكان المحور الذي يقوم عليه هذا المشروع هو محمد علي نفسه الذي أراد إقامة دولة علوية، وكانت القوة الدافعة فيه هي الجيش، بينما كان أكبر نقص فيه هو عدم قيامه على قاعدة شعبية، فمحمد علي لم يكن مصرياً، كما أنه كان عسكرياً، وأبعدته هاتان الصفتان عن شعب مصر، فلم يكن هناك تجاوب مطلقاً بينه وبين الشعب، ولم يكن يتكلم العربية بطلاقة، ولم يكن لديه أي فكرة عن تاريخ مصر

وأمجادها القديمة التي كانت موجودة حتى عند نابليون، وكان كذلك عسكرياً، فحتى لو كان مصرياً، فإن صفته العسكرية كانت ستحول إلى حد ما دون خلطته بالشعب، أو دون أن تكون لديه فكرة عن حكم ديمقراطي أو شورى أو يقوم على قيم لأنه:

### من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتسه سؤالاً

فقيم العسكريين كلها تتبلور في "السيف" وما يتوصل إليه من سيطرة.

من أجل هذا عمد محمد علي إلى الاستعانة بكل العناصر الأجنبية من روم وأرمن وإيطاليين وفرنسيين، وأكراد بل إنه استعان بأبناء المماليك الذين أبادهم في مذبحة القلعة، وحاول أن يستجلب جنوداً من السودان، خاصة عندما زاد في حجم الجيش ليستطيع أن يخوض معاركه ضد تركيا، ولما لم تكف هذه كلها اضطر إلى الاستعانة بالمصريين والفلاحين، فدخلوا الجيش وكانوا في الحقيقة أبطال الانتصارات التي نالها إبراهيم باشا حتى معركة "نزيب" التي جاوزت جبال طوروس وحدود تركيا وكلل هذا بانضمام الأسطول التركي إلى الأسطول المصري !

عند هذه النقطة تدخلت القوى الأوروبية التي كانت تتابع نجاح محمد علي بقلق شديد، ورأت أن من الضروري أن تجهض هذه التجربة فتدخلت بثقلها ودمرت الأسطول المصري التركي في "نفارين"، ثم تجمعت الجيوش التركية الأوروبية على إبراهيم باشا في الشام، وتقدمت الدول الأوروبية إلى محمد علي بعرض الاحتفاظ بالشام في حياته وبمصر له ولورثته، فرفض وأنزلت مطالبها إلى الاحتفاظ بمصر وفلسطين فرفض، وعندئذ دارت المعارك واضطر إبراهيم باشا إلى الانسحاب، وكان السبب الحقيقي في الانسحاب هو أن محمد علي لم تكن له قاعدة شعبية تسانده تؤيد وترفد جهوده العسكرية، فلو كانت موجودة لأمكن لمحمد علي مواصلة القتال أو على الأقل تعزيز مركزه التفاوضي، حتى تم الاتفاق على أن يكون لمصر قدر من الاستقلال وأن يكون حكمها في أسرته، وبهذا خسر محمد علي إمبراطوريته في الشام والحجاز ولكن احتفظ بمصر من حدودها الشمالية حتى منابع النيل وتلك الدول المحيطة بالنيل والتي انضمت إلى الحكم المصري.

ولو كان لدي محمد علي مشروع حضاري لكان من الممكن أن يبدأ من جديد فلا يزال حاكماً على إمبراطوريته ولكنه كان رجل الجيش ولم يكن يقدر أو يسيغ، فضلاً عن أن يعمل على وجود قاعدة شعبية تشاركه في القيام بمسئوليات النهضة، وقد قصمت نفارين ظهره، وكانت النهاية، فأغلقت المصانع التي كانت تورد للجيش المدافع والذخيرة والترسانة التي كانت تخدم الأسطول، والمدارس التي كانت تمد الجيش بالمهندسين والطوبجية والضباط.. الخ.

من هذا العرض الموجز يتضح أن السبب الأعظم لفشل تجربة محمد علي في جعل مصر دولة عظمى، أو على الأقل دولة لها كيانها ووجودها وبحسب حسابها، إنما يعود إلى أنه أقام تجربته كلها على أساس الجيش، وأنه لم يكن لديه رؤية حضارية في الحكم ولم يكن لديه الثقة في الشعب والتجاوب معه وأن وجوه النقص هذه تعود بالدرجة الأولى إلى أنه كان ضابطاً، وأجنبياً.

ولولا أن هوس السلطة لا يدع لصاحبه فسحة يمكن أن يفكر عبرها لتبين محمد علي بذكائه الخارق أن هناك جسراً كان يمكن أن يصله إلى وجدان الشعب ويستبعد سوءات وضعه الأجنبي العسكري، هو الدين، وقد لمس هو نفسه قوة هذا العامل عندما تسلم خلعة الولاية من يد السيد عمر مكرم والشيخ الشرفاوي، كما تبينه

وهو حاكم بحيث نصح كلوت بك وسليمان باشا الفرنسي باعتراف الإسلام إن لم يكن عن عقيدة، فلكن يمكن أن يندمجا في مجتمعهما، وقد كان هو نفسه أحوج منهما وأقرب باعتباره بعد كل شئ مسلماً، ولكن ضراوة السلطة أعمت عينيه وطمست بصيرته، فاعتقد أن دولته تتمحور حول شخصيته وتعتمد على الجيش أفضل من حكم يقوم على عقيدة ويشترك معه فيه الشعب، وأدت الهزيمة إلى نكسة نفسية وذهنية ضاعلت من قواه العقلية وزاد فيها موت ابنه النابغ إبراهيم الذي كان يعده لوراثة الحكم، فلم يعد يستطيع أن يفكر أو يقدر حتى وافاه الموت.

وضاعت الفرصة التي لن تتكرر أبداً.

فرصة أن تكون مصر دولة كبرى، الخامسة أو السادسة في العالم، لأنه رغم كل غشومة محمد علي، فإنه استطاع بفضل طبيعة مصر ومواردها أن يدفع البلاد إلى مستوى المعاصرة للتقدم الصناعي، وكان يمكن لمصر أن تسبق اليابان التي بدأت تجربتها بعد مصر بخمسين عاماً، ومع أن أوروبا كانت قد بدأت مسيرتها الاستعمارية، إلا أن الشرق كان لا يزال قائماً على قدميه، حتى وإن كان يترنح، ولكن لم ينطرح أرضاً، ولم تكن صور استعمار الاستيطان والإبادة قد ظهرت كما لم تكن قد ظهرت الدول الأخطبوط كالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة التي تسوق العالم كقطيع من الأغنام، ولم تكن الفجوة التكنولوجية قد اتسعت بحيث تقدر بمئات الأعوام ما بين الدول المتقدمة، والدول المتخلفة، فقد كانت مصر ثاني دولة في العالم تنشئ سكة حديدية وتستخدم القطار وأن الجيش المصري رمز الانتصار والفخار وهزم جيشاً كان "فون مولتكه" من مستشاري قائده، وعندما زار إبراهيم باشا عدداً من الدول الأوروبية قوبل بأعظم مظاهر التقدير والاحترام.

ورغم كل شيء فإن تجربة محمد علي وإن فشلت في أن توجد الدولة الصناعية الحديثة، وأن تمد حدودها من الشام حتى منابع النيل، فإن محمد علي عندما مات سلم ل خلفائه دولة تمتد من فلسطين شمالاً حتى منابع النيل جنوباً قامت كل نهضتها على أسس ذاتية بفضل الموارد المصرية وعبقريته محمد علي\*.